أضواء على فكر المعتزلة

للدكتور
أحمد عبد الله الطيار
استاذ العقيدة المساعد
بجامعة الإمارات العربية المتحدة
كلية الشريعة والقانون

بسم الله الرحمن الرحيم

المعتزلة

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين . وصلوات الله وعظيم تسليماته على هادى الأمة وكاشف الغمة سيدنا محمد الذى أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ... وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .. وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ... وعلى الغر الصحابة الميامين الذى ساروا على نهجه واتبعوا النور الذى جاء به أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

وبعد ...

فمن يطالع تاريخ الفرق يجد أن المعتزلة من أكبر واهم الفرق التى دارت حولها الدراسات حتى لا تكاد تحصى كثرة وتنوعا – قديما وحديثا – فلم تحظ فرقة على مدى التاريخ باهتمام العلماء والنقاد ودلالة آرائها أصولا وفرعاً بمثل ما حظيت به المعتزلة .. تلك الفرقة التى انطلقت فى فترة تأسيسها من مبدأ تعظيم العقل وإكباره إلى حد تقديمه على النص عند توهم التعارض وجعله إماما يقتدى به وما عداه تبع له .

ولعل السر فى اهتمام الباحثين بالمعتزلة يرجع إلى ما أضافته هذه الفرقة للتراث والفكر ... ولما انفردت به من آراء وقضايا أهل السنة مجافية للمنهج الحق ، مخالفة للكثير من الثابت بالوحى الشريف كتابا وسنة ، معتمدة على تأويلات متكلفة لا يقول بها أهل السنة ولقد استطاعت منذ تأسيسها استقطاب عدد كبير من العلماء مما أدى إلى ازدياد النفوذ وتوسيع دائرة الاضطراب .

ومن هنا يمكن القول إن المعتزلة كان لها دور كبير في نشأة الحركة الفكرية والثقافية والتأثير في سيرتها بدءاً من أوائل القرن الثاني الهجري ثم اتسعت دائرة انتشارها وتأثيرها حتى استقطبت كثيرين من الخلفاء وظل هذا التأثير بما له وما عليه يزداد مع مرور الأيام قوة حتى بلغ مداه واستوى على عوده خلال القرن الثالث الهجري .

وهذا الذيوع والانتشار أدى إلى تغلغل فكر المعتزلة واقتناع البعض بأفكارهم .. ولعل واقعنا المعاصر ينبئ بهذه الحقيقة ، فهناك فئات بلغ اقتناعهم بهذا الفكر إلى حد الدفاع عنه وإعلان الحرب على ما عداه .. واتخذوا منه مطية للتقول والطعن فيما هو معلوم من الدين بالضرورة .

والواجب يدعوني إلى السير في ركاب من سبقني من سلفنا من العلماء العاملين الذين أخذوا على عواتقهم تمحيص الفكر الاعتزالي ، ونقده انطلاقا من الميزان الحق القائم على الكتاب والسنة وبيان الحق في هذا الفكر : له أو عليه ، وليس من شك في أن تقويم الفكر وفق هذا المنهج هو أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً لا تجد فيه عوجا ولا أمتا (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[سورة الأنعام : ١٥٣]

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) [سورة الزمر : ٥٥] .

والقارئ لما كتب عنهم يرى أن الكثيرين من الذين درسوا فكر الاعتزال في غالب أمرهم لا يخرجون عن اثنين : إما محب غال ، يقبل الفكر كما هو ، ويدافع عنه ، ولا يعرف دين الله إلا من خلاله ، ويرى ما عداه باطلا فاسدا .

وإما : ماقت قال لا يرى في الفكر الاعتزالي إلا كل باطل وضلال .

وكلا الإثنين على خطأ فالفكر الاعتزالي فيه من الحق مثل ما فيه من الباطل ، وللمعتزلة أياد طيبة تحسب لهم كما لهم كذلك أخطاؤهم وعيوبهم . و تُسوّغ لنا كثرة أخطائهم ، أن نمحو كل أثر طيب لهم ولو كان قليلاً . فإن الحق أحق أن يتبع ، وليس من الحق أن ننكر حسنات لإنسان مهما كانت قليلة والله تعالى يقول (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

وحسبي أنني قمت بهذه الدراسة دون تعصب ، ولا ميل لي إلا إلى الإنصاف والحق ، ولا اعتماد إلا على الله وحده ، ولا اقتداء واهتداء إلا بكتابه وسنة نبيه ونيتي وهدفي : أن ما كان حقا وجب إتباعه ونصرته والدفاع عنه ، وما كان غير ذلك وجب نبذه ودحضه وبيان زيفه والتحذير منه أمرا بمعروف ، ونهيا عن منكر ، وطاعة لله ورسوله .

أدعو الله أن أكون قد وفقت فيما قصدت... فما كان صوابا فمنه سبحانه وما كان خطأ فمن نفسي .. والله حسبي وهو نعم المولى ونعم النصير .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د / أحمد عبد الله الطيار ،،

نشأة المعتزلة

كثير من الباحثين فى دراسة تاريخ الفرق – قديما وحديثا – يحولون فى ظهور المعتزلة ونشاتهم على يد مؤسسها واصل بن عطاء الغزال فى بداية القرن الثانى الهجرى ..

وجلّ اعتماد هؤلاء الباحثين فى تاريخ الفرق على الموقف المشهور بين واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصرى حين احتدم الجدل فى هذا العصر حول مرتكب الكبيرة :

والموقف ذكره الشهرستانى والاسفرايينى والبغدادى وغيرهم ممن تناول المعتزلة بالبحث والدراسة هكذا :

" دخل رجل على الحسن البصرى فى حلقته التى كان يعلمُ فيها المسلمين ويرشدهم ويفتيهم فيما يشغلهم من قضايا فى الدين – قال الرجل يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به من الملة .. وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان – بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان – ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟؟ ففكر الحسن البصرى فى ذلك وقبل أن يجيب ، قال واصل بين عطاء ! – وكان من تلاميذه النجباء – أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ، ولا كافر مطلقا ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر .

ثم قام واعتزل – مجلس أستاذه – إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن – قولته المشهورة – اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة " .

وانضم إليه فى ذلك عمرو بن عبيد وبعض الناس فقيل لهم ولأتباعهم معتزلة (١) ، لاعتزالهم رأى الأمة فى دعواهم أن الفاسق من أمة الإسلام لا هو مؤمن ولا كافر (٢) .

وهذا الموقف يحدد – تحديدا دقيقا – زمن ظهور المعتزلة فى السنوات الأولى من القرن الثانى الهجرى فواصل ولد سنة ٨١هـ " إحدى وثمانين " وتوفى أستاذه الحسن البصرى سنة ١١٠هـ وهذا الموقف – أيضا – يبين أن الظهور الرسمى للمعتزلة كفرقة كلامية واضحة المعالم فى اتجاهاتها وآرائها بدأت فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، ثم تطورت فيما بعد .

وهناك أسماء أخرى أطلقت عليهم من مخالفيهم مع تطور الفكر الاعتزالى وتعدد الآراء الخاصة بهم .. وهى أسماء لم تلق ارتياحاً وقبولا منهم .. فأطلق عليهم :

* مجوس الأمة : لشبههم فى القول بالثنوية – يعنى ثنوية الخير والشر والنور والظلام .

ولقولهم بوجود خالقين – الله تعالى – خالق كل شئ ما عدا أفعال العباد ، والعباد هم خالقوا أفعالهم وليس الله سبحانه وتعالى ، فأضحى بذلك فى الوجود خالقان ، وذلك جعل المعتزلة أشبه بالمجوس القائلين بخالقين : " أهرمن " خالق النور والخير ، و " يزدادن " خالق الظلام والشر .

* الوعيدية : أطلق عليهم ذلك الاسم – مع أن جميع الفرق تقول بالوعد والوعيد ، بل جيمع المسلمين يقولون به ، والقرآن المجيد قد

---

(١) انظر الملل والنحل : ١ / ٤٧ – ٤٨ للشهرستانى .

(٢) راجع البغدادى : الفرق بين الفرق : /١٢ .

اشتمل على الأمرين – وذلك لقولهم بوجوب تنفيذ الله تعالى وعده ووعيده وأنه يجب عليه سبحانه إيقاع الأمرين تماما على ما "وعد" و "أوعد" وأنه لا يجوز أن يخلف وعده أو وعيده ، ولا يملك ذلك – عياذا بالله – وذلك على عكس العقيدة الصحيحة لأهل السنة والجماعة ، حيث يعتقدون أن الله سبحانه لا يجب عليه شئ ، بل هو فعال لما يريد ، له المشيئة التامة ، والإرادة المطلقة ، لذلك كانت عقيدة أهل السنة والسلف، أن الله تعالى لا يجب عليه شئ ، فإذا شاء سبحانه أدخل الطائع النار ، وأدخل العاصي الجنة ، ولا اعتراض لأحد على مشيئته وإرادته ، لكنا نؤمن بأن الله تعالى لا يفعل ذلك ، ليس لأنه يجب عليه شئ بل لأنه عز وجل قد أخبرنا بأنه حق لا ريب فيه .. ونحن نؤمن كذلك أن الله تعالى يحقق وعده لأنه سبحانه أخبرنا بأنه : " لا يخلف الميعاد " وأنه سبحانه قد يحقق وعيده ، وقد يعفو عن العاصي فلا يحقق وعيده رحمة ولطفا ، لأن الكريم لا يخلف وعده ، بل يحققه ، ولكنه قد يخلف وعيده رحمة وعفوا ولطفا . هذه عقيدتنا نحن – أهل السنة والجماعة – وذلك على عكس " الوعيدية " المعتزلة الذين يوجبون على الله عز وجل إنفاذ الوعد والوعيد .

* المعطلة : لنفيهم وتعطيلهم صفات الله خوفا من الوقوع فى الشرك والتشبيه أو التعدد والكثرة .

* القدرية : لقولهم بخلق العباد لأفعالهم بعيدا عن الله سبحانه بقدرة أودعها الله تعالى فيهم .

* المفنية : لقولهم بفناء الجنة والنار وانتهاء النعيم والعذاب فيها .

وغير ذلك من المسميات المنبثقة من آرائهم ومعتقداتهم (١)

---

(١) يراجع فى ذلك " المعتزلة " د / هدى جار الله – ٤٠٥ وما بعدها .

على أن ثمة مباحث حول أسم " المعتزلة " :

ما المراد بهذا الإسم ؟

وعلى من أطلق ؟ واول من أطلقه ؟

أما المراد بلفظ " المعتزلة " فهو الاعتزال ، والانتباذ ، والابتعاد ، وقد يراد به أيضا : الرفض . يستوى فى ذلك أن يكون الاعتزال والرفض معنويا عقديا . كاعتزال واصل بن عطاء رحمه الله وأتباعه عقيدة الحسن البصرى فى مرتكب الكبيرة ، ثم ما تفرع لهم بعد ذلك من عقائد ، فهذا اعتزال معنوى عقدى ، وهو رفض ونبذ لعقائد الحسن ثم أهل السنة .

او أن يكون الاعتزال ماديا مكانيا أخذا من اعتزال واصل بن عطاء رحمه الله حلقة الحسن والابتعاد عنه ، وانشاء حلقة خاصة به .

ثم هل هناك علاقة بين المعتزلة كفرقة والذين اعتزلوا الفتنة ايام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية رضى الله عنهما ؟؟

حاول بعض الباحثين ان يربط بين الفرقة الكلامية ومن اعتزل الفتنة التى وقعت فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومن خلال مصادر تاريخ الفرق يمكن العثور على العلاقة الاسمية بين الاعتزال كفرقة ، وبين الاعتزال أيام الفتنة خشية الوقوع فيها وان كان وجه الشبه لفظى – فى رأيى – حتى وإن كان للمعتزله – فيما بعد – رأى فى الاحداث الجسيمة قبل نشأة المعتزلة وعلى سبيل المثال يذكر الطبرى فى تاريخه واقعة فيها اعتزال قوم الفتنة يقول الطبرى : (لما رجع الاحنف بن قيس من عند على لقيه هلال بن وكيع وقال : ما رأيك؟ قال : الاعتزال ، فما رأيك ؟ قال : مكاتفة أم المؤمنين عائشة رضى الله

عنها أفتدعنا وأنت سيدنا؟ قال : إنما أكون سيدكم غدا إذا قتلت وبقيت ، فقال هلال : هذا وأنت شيخنا ، فقال : أن الشيخ المعصى وأنت الشاب المطاع ، فاتبعت بنوسعد الأحنف بن قيس فاعتزل بهم إلى وادى السباع(١).

واللفظ فى دلالته اللغوية يعنى الابتعاد والتنحى والانفصال ؛ لكن ستعمل هنا فى الإبتعاد عن الطرفين المتحاربين سواء فى موقعة الجمل أو صفين ، ولسنا بصدد البحث التاريخى حولهما .

ويذكر السائر فى ، والنزبختى : أن أول ما وقع اسم الاعتزال : أيام أمير المؤمنين على بن أبى طالب – كرم الله وجه ورضى الله عنه حين اعتزل عنه جماعة : مثل سعد بن مالك وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الانصارى وأسامة بن زيد مولى رسول الله (ﷺ) .. ثم بعد ذلك الأحنف بن قيس وغيرهم ..(٢) ممن اعتزلوا الوقوع فى الفتنة والدخول فى الحرب ضد على أو معه ، بعد دخولهم فىبيعته والرضا به ، وهؤلاء سموا بالمعتزلة ، وصاروا أسلاف المعتزلة إلى الابد(٣) .

وفى هذا الرأى خلط بين معتزلة الفتنة والسياسة ، وبين المعتزلة كفرقة وطائفة ، وان كان اللفظ – المعتزلة – قد أطلق عليهما جميعا ، لكن الفرق بعيد بينهما .

نعم : هناك من يحاول أن يربط بين معتزلة الفتنة ومعتزلة واصل بن عطاء ، ويجعل الأخيرة امتداداً لهم .. وهذا ما يحاول أن يؤصل له " الملطى" فى كتابه " التنبيه والرد " .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٥٠٤/٤ .

(٢) انظر الغلو والفرق الغالية : عبد الله السامرائى – ٢٢٧ ، وانظر فرق الشيعة للنوبختى .

(٣) المصدر السابق .

فيقول واصفا المعتزلة متحدثا عهم .." هم أرباب الكلام وأصحاب الجدل والتمييز والنظر والاستنباط والحجج على من خالفهم ، وأنواع الكلام ، والمفرقون بين علم السمع وعلم العقل ، والمنصفون فى مناظرة الخصوم .. وسموا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن على رضى الله عنه معاوية وسلم إليه الأمر ، لزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة " (١)

ومن رأينا :

أنه ليست هناك أدنى مناسبة فكرية بين هؤلاء وأولئك . ولعل الرجل أراد أنهم " سموا أنفسهم " بذلك الاسم الشريف المبارك الذى اختارته لنفسها طائفة من صحابة رسول الله (ﷺ) حينما اعتزلوا فريقى الفتنة . أو أطلق عليهم .

والاسم يشرف بالمسمى . لذلك كان ذلك الاسم شريفا حين انتمى إلى جماعة من الصحابة لقى رسول الله (ﷺ) ربه وهو راض عنهم .

نقول : لعل " الملطى " أراد أن معتزلة الكلام أخذوا الاسم عن معتزلة الفتنة .

أما الزعم بأن ثمة مناسبة بين الفريقين سوى مجرد التسمية ، فزعم باطل بكل المقاييس ، قال به " الملطى " أو " القبرصى " أو غيرهما .

هكذا يحاول البعض أن يجعل معتزلة الفتنة من الصحابة ومعتزلة واصل بن عطاء وأتباعه كأنهما فرقة واحدة .. أو حتى إيجاد

---

(١) التنبيه والرد : ٣٥ ، ٣٦ .

علاقة بينهما وأنا أرى أن محاولة إيجاد مثل هذه العلاقة مناف للحقيقة لعدة أمور أوجزها فيما يلي :

١ – أن الصحابة الأجلاء اعتزلوا الفتنة خوفا من الوقوع فى الإثم ، أما معتزلة واصل فاعتزلوا الحق لأنه لا يتفق مع مبادئهم وأسس مذهبهم .

٢ – لا يمكن التسوية بين الأجلاء من الصحابة مثل عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص وأسامة بن زيد رضى الله عنهم جميعا ، وبين تلاميذة واصل ومن معه كالنظام وعمرو بن عبيد وغيرهم .

٣ – أن الذين حاربوا مع الإمام رضى الله عنهم كانوا مع النص والذين اعتزلوا كذلك كانوا مع النص وكلاً وعد الله الحسنى – رضى الله عن الجميع وأرضاهم ، أما معتزلة المذهب فقد ردوا كثيرا من النصوص، وأدلوا كثيرا منها كذلك .

٤ – كان اعتزال الأجلة من الصحابة رضوان الله عليهم مبنيا على اجتهادهم في فهم نصوص السنة النبوية التى جاءت بها الأحاديث فى الصحاح ، والتى تحض الأمة على تجنب الفتنة ، والابتعاد عنها ، وهى المشهورة بأحاديث الفتن ، وكان هذا اجتهادا منهم ، قد يكون هناك من يخالفهم فيه ، لكنه اجتهاد محمود من حيث هدفه ، وهو التزام النص النبوى الصحيح . بخلاف ما نجده فى فكر المعتزلة وموقفهم من النصوص الحديثة .

ولا أدل على ذلك من اجترار الآثار البغيضة التى نتجرع مرارتها الآن من جراء هذا الفكر المتحرف الذى جر على الأمة ويلات مازالت ترسف فى أغلالها ... والواقع أصدق أنباء من أى كلام .. فدعاة العقلانية ينفثون سموم أفكارهم ليل نهار ويجدون آذانا صاغية من أذنابهم ،

والطاعنون فى احكام القرآن الكريم النافون للسنة يمرحون ويغدون ويروحون لبث ما هم به مقتنعون دون محاسبة .. وإذا اعترض معترض تكال له الاتهامات بالجمود تارة وإعاقة حرية العقل أخرى والإنغلاق الفكرى ثالثة .. وهكذا دواليك !

وهؤلاء المستغربين الذين بين أظهرنا – نتاج طبيعى لفكر المعتزلة المقدم للعقل على النص ، القائلين بالحسن والقبح العقليين مثلما هم نتاج للعقلانية الغربية .

فهل نسوى بين اتباع الحق والذين فى قلوبهم زيغ ؟؟

وفى رأيى أنه من الـ[illegible] على الفكر الإسلامى الاصيل أن نقحم عليه الفكر الاعتزالى لإيجاد علاقة مشبوهة لا أساس لها بل الحق ينفيها ولا يقبلها ، ليس من الاصوب والازكى لذوى هذا الفكر أن يؤوبوا للحق ويذعنوا له بدلا من إيجاد أسباب الفرقة التى قادت المسلمين إلى شر مستطير ؟؟ ومن هنا فالعلاقة منفية من كل جوانبها ، ولا يوجد أدنى نسب أو شبه بين من اعتزلوا مزالق النفس ، ومن سار مع الهوى فى كل منعرج .

يذكر البغدادى فى هذا الصدد " وكان واصل من مرتادى مجلس الحسن فى زمان فتنة الازارقة ، وكان الناس يومئذ مختلفين فى أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق ، فرقة تزعم أن كل مرتكب لذنب صغير أو كبير مشرك بالله ، وكان هذا قول الازارقة من الخوارج ، وزعم هؤلاء أن أطفال المشركين مشركون ، ولذلك استحلوا قتل أطفال مخالفيهم ، وقتل نسائهم سواء كانوا من أمة الإسلام أو من غيرهم ، لما ظهرت فتنة الأزارقة بالبصرة والاهواز ، واختلف الناس عند ذلك فى أصحاب الذنوب ، خرج واصل بن عطاء عن قول الفرق المتقدمة وزعم أن الفاسق فى هذه الامة لا مؤمن ولا كافر ، وجعل الفسق منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان (١)

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق – ٩٧ .

ومرتكب الكبيرة عندهم إن لم يتب يكون ماله المحتوم ما توعده به الله من العذاب وليس لذلك الوعيد أن يتخلف بحال من الأحوال كما أن الوعد بالثواب لا يتخلف (١) .

ومن الملاحظ فى هذا الصدد تلك النزعة العقلانية المتغلبة على فكر القوم واتجاهاتهم والتى نمت وتطورت بعد أن وجدت معينها فى الفكر اليونانى الدخيل فيما بعد .

فقد كانوا يقدمون الأفكار بطريقة عقلية فلسفية لتمرسهم على هذا الأسلوب ... ومن هنا اضطر المعتزلة إلى سلوك هذا الطريق لتقديم أفكارهم ومبادئهم .. مع من عارضهم – ولذا كانت النزعة الفلسفية العقلية من أبرز سماتهم .

وقد كان لهذه النزعة تأثير كبير على كثير من آرائهم التى انفردوا بها وأوقعتهم فى تطرف فكرى وانحرف عقدى .

كنفى القدر فى أفعال العباد والقول بخلق القرآن .. ونفى رؤية الله وهذا كله مبين فى موضعه من هذه الدراسة .

ومما تقدم .. أخلص إلى القول بالنفى المطلق بين وجود أية علاقة بين المعتزلة كفرقة كلامية وبين الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة . وهذا ما تطمئن إليه النفس .

أيضا .. تأثر المعتزلة بالفلسفة والمنطق اليونانيين كان لهما الأثر الكبير فى تطور أفكارهم وعرض مبادئهم .

هذه كلمه موجزة عن نشأة المعتزلة وظروف هذه النشأة وعلى الصفحات التالية إلقاء الضوء على أهم قضايا الفكر المعتزلى.

---

(١) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة – ١٣٤ .

" أصول المعتزلة "

يقوم مذهب الاعتزال على أصول كثيرة ويثير قضايا مختلفة ولكن المؤرخين للمذهب يجمعون مبادئ الاعتزال ويحصرونها في خمسة أصول تحديدا . وقبل أن ندخل في شرح هذه الأصول ننبه إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول : أن هذه الأصول الخمسة وما يندرج تحتها من قضايا لم تتوفر للمذهب ، ولم تتبلور جملة واحدة ، ولم يقل بها مؤسس المذهب منذ بداية نشأته . ولكن المؤسس واصل بن عطاء وضع بعضها واهمها هو القول بالمنزلة بين المنزلتين ، ثم أضاف إليها من جاء بعده من شيوخ المذهب حتى اكتملت مبادئ المذهب وأصوله التي يقوم عليها في صورتها النهائية التي اطلق عليها العلماء مصطلح : " الأصول الخمسة " .

الأمر الثاني : أن هذه الأصول الخمسة هي مبادئ المذهب وأصوله التي يقوم عليها ويعرف بها ويجمع قضاياه في إطارها : ومن هنا فقد اتفق علماء الكلام ومؤرخو الفرق أنه لا يصح أن يوصف أحد بأنه على مذهب الاعتزال أو أنه معتزلي إلا إذا جمع الاعتقاد بهذه الأصول جميعها ، فكل من اعتقد هذه الأصول جميعها فهو من المعتزلة ، أما من أنكرها جميعها ، أو اعتقد شيئا منها دون شئ ، أو من أنكر أصلاً من أصولها ولو اعتقد الاربعة الأخرى فليس من المعتزلة ، ولا يصدق عليه وصف الاعتزال .

الأمر الثالث : أن هذه الأصول الخمسة هي أصول المذهب وأسسه ومبادئه ، التي اجتمع عليها أقطاب المذهب وشيوخه ، وتابعهم على ذلك كافة المعتزلة ، ولكن ثمة مبادئ أخرى تتصل بهذه الأصول ، لا تمثل شئ منها أصلا سادسا ، ولا يضيف إلى الخمسة أساسا آخر ، لكنها مبادئ وشروح تتصل ببعض هذه الأصول الخمسة . وهذه المبادئ

المتفرعة عن الخمسة الأصول لا تمثل إلزاما لجمهرة المعتزلة ، ولا تحسب على المذهب جملة ، ولكنها تخص أصحابها والقائلين بها ومن يتابعهم فيها. ولذلك نرى كثيرا من المبادئ التى قال بها بعض أتباع المذهب مثل : الخياط ، والعلاف ، والنظام وأبى هاشم ، وهؤلاء ينشئون أفكارا لا تلزم المذهب بل إن جمهرة شيوخ المذهب ينكرونها جملة أو ينكرون الكثير منها. ويتضح هذا من موقف شيخ المعتزلة المنظّر للمذهب : القاضي عبد الجبار ، الذى لم يقبل الكثير مما قال به هؤلاء ، بل رفضه ونعى عليه .

أصول المذهب

أما أصول المذهب فتتمثل فيما يلى :

١ – التوحيد .

٢– العدل . وهم يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد .

٣ – المنزلة بين المنزلتين .

٤ – الوعد والوعيد .

٥ – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . (١)

وهذا الأصول – فى نظرهم – لا يزاد عليها ولا ينقص منها ، فمن أنقص منها أو زاد عليها لا يعترف باعتزاله ولا ينتسب إليهم وأعلن هذا صراحة أحد أقطابهم وهو أبو الحسن الخياط بقوله : "وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة " (٢) .

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١ / ٢٢٨ .

(٢) البلخى : ت ٣١٩ – فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : ١٧ .

فمن لم يعتقد التوحيد والعدل فلا يمكن أن يوصف بالاعتزال حتى وإن قال بأصل " المنزلة بين المنزلتين وبقية الأصول الخمسة ، وممن انتفى عنهم اسم الاعتزال لأنهم لم يقولوا بالتوحيد والعد كما ذكر أبو القاسم البلخى : ضرار بن عمرو وأصحابه ، لأنهم لم يومنوا بالتوحيد والعدل ، وإن قالوا بالمنزلة بين المنزلتين .

وأما كون هذه المبادئ قد صدرت عن أصول فلسفية متأثرة بالفلسفة اليونانية أو المسيحية كما يقول ديبور وغيره غير صحيح لأن هذه المبادئ قد تم بلورتها قبل الترجمة : أعنى ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية ففكر المعتزلة فيها أسبق تاريخيا وأما قول الشهرستاني وغيره بتأثر العلاف والنظام ومن أتى بعدهما بالفكر اليوناني فصحيح لكنه تأثر فى تطور الفكر إبان نشأته .

ويرى البعض أن المتأمل فى هذه الأصول وما ينبثق منها يجد أنها لم تصدر عن مبادئ إسلامية خالصة .. وإنما الكثير منها صدر عن تأثر بمذاهب وفلسفات يونانية (١) .

ويستدل هؤلاء بأن كثيرا من كتب الفرق المعتمدة والمعتبرة تطالعنا بهذه التأثيرات غير الإسلامية أثناء الكلام عن بعض مبادئ المعتزلة أو تحليل أفكارهم .

ولا أدل على ذلك من تكرار مثل هذا عند مؤرخى الفرق - على سبيل المثال - ما ذكره الشهرستانى والبغدادى والأشعرى ..

يقول الأشعري : وقد أخذ العلاف عن ارسطو طاليس " (٢)

(١) انظر " أدب المعتزلة " عبد الحليم بليغ - ١٢٢ .
(٢) مقالات الإسلاميين : ٢ / ٢٨٨ .

ويقول فى تعليقة له : وهذا قول أخذوه عن إخوانهم من المتفلسفة " يقول والشهرستانى عن العلاف : قد طالع كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة .. وبقوله أيضا " اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة " (١) .

وكل من طالع التراث الاعتزالى من القدامى والمحدثين بتجرد وبعد عن أى مؤثر اثبت أن كثيرا من افكارهم وآرائهم إنما صدر عن تأثر بفلسفات لا تتفق أبدا مع الإيمان واسسه ، وقد ذكر البغدادى تأثر النظام -وهو أحد مشاهيرهم- بأناس من ملاحدة الفلسفة بسبب مخالطته لهم فى كبره .. وتأثر كذلك بالروافض لأنه خالط هشام بن الحكم الرافضى.. وكذا البراهمية لم يسلم النظام من التأثر بهم فى إبطالهم وإنكارهم النبوات . (٢) ويستدلون كذلك بما أثبته القدامى من تأثر المعتزلة بالتيارات والأفكار الفلسفية من غير المسلمين . حيث أثبتها كثير من الدارسين الغربيين لفكر المعتزلة فعلى سبيل المثال أثبت " فون كريم " تأثر المعتزلة فى النشأة باللاهوت اليونانى .. كذلك " ستينر " ذكر تأثرهم فى آخر تطوراتهم بالفلسفة اليونانية .. و" دى بور " يذكر أنهم تأثروا بعوامل نصرانية أبلغ التأثير .

وهذا القول فيه ظلم كبير للمتعزلة ، وفيه تجن عليهم فى جوانب كثيرة ، فإن مؤسس المذهب لم تكن له صلة لا باليونانية ولا النصرانية ولا البراهمية .

ومن ثمَّ فإن العجب يأخذنا حين يقال إن أسس المذهب تأثرت باليونانية والبراهمية ، والنصرانية وغير ذلك .

فأى أساس هذا الذى تأثر به هؤلاء ؟ هل هو قولهم بالتوحيد وتشددهم فيه إلى حد إنكار الصفات ؟

---

(١) الملل والنحل : ١ / ٥٠ ، ٥٣ .

(٢) راجع البغدادى : الفرق بين الفرق : ١٣١ .

وكيف ذلك والنصرانية والبراهمية مثلثة ، واليونان وثنيون ... النهى عن المنكر ؟ وهؤلاء جميعا لا يعرفون

نقول : لا جدال فى ان بعض المعتزلة ممن لهم صوت عال قد خلط بعض القضايا الفرعية بالفلسفة مثل العلاف والنظام والخياط .

إذن فكل ما قيل إنما هو خاص ببعض شذاذ الفكر ، وفاسدى العقيدة ممن ينتسبون إلى المعتزلة ، وعامة المعتزلة يبرأون منهم ولا يرضون فكرهم .

وهؤلاء جماعة معروفة بشذوذهم عن سواء السبيل ، مثل العلاف والنظام والخياط ، والجاحظ .

والدليل على أن كلام هؤلاء الشذاذ لا يحسب على المعتزلة ، ولا يؤاخذ به جمهورهم أمران :

الأول : أن كلام هؤلاء وأفكارهم التى ابتدعوها والتى تبعده عن افكار جمهرة أصحاب المذهب لم يعتبرها المتكلمون ولا مؤرخو الفرق من مذهب الاعتزال . بل اعتبروها خاصة بأصحابها ، ومن ثم كانت هذه الآراء محصورة فى مذاهب خاصة نسبت لأصحابها صراحة ، ولم تنسب إلى المعتزلة . ذلك كمذهب : " النظامية " و "الخياطية " و " البهشمية"، نسبة إلى النظام والخياط وأبو هاشم

الثانى : أن المؤرخين للاعتزال الثابتين على أصوله ، الشارحين لتلك الأصول ، نقدوا أفكار هؤلاء ورفضوها ، لذلك كان ظلما إحتساب الشذاذ على المذهب ثم إن مشكلة المعتزلة تكمن فى أن اعتمادهم العقل جذب إليهم الكثيرين من الخارجين وشذاذ الفكر وفاسدى العقيدة . وكلهم عبروا عما يريدون وروجوا عن أحقادهم تحت ستار إعمال العقل .

أما عامة المعتزلة بدءا من المؤسس الذى اشتهر بزهده ودينه والتزامه ، فهم على دين الإسلام ، وإن شذوا فى شئ فقد كانوا متأولين حرصا منهم على تنزيه الله تعالى . وإن صحت نياتهم وضلت طرقهم فهم على جبهة الإسلام ، ويخفف من انحرافهم صدق نواياهم . وهم فى إطار الحكمة التى أطلقها على بن أبى طالب رضى الله عنه حينما أوصى أصحابه بالخوارج رغم ما كان بينه وبينهم حيث قال : إنهم يطلبون الحق ويخطئون ، وليس من طلب الحق فأخطاه ، كمن طلب الباطل فأصابه "

أما عن كتابات " الدارسين غير المسلمين " عن المعتزلة فجلها – إن لم يكن كلها – كتابات مغرضة ضالة صدرت عن حقد على الإسلام والمسلمين . وما ينبغى أن نأخذ كتاباتهم قضايا مسلمة

ويذكر " هاملتون " أن المعتزلة كانوا يصبون عقائدهم فى قوالب الأفكار اليونانية " ويستوحون تأملاتهم الدينية من الميتافيزيقا اليونانية بدلا من القرآن .. (١).

وبعد هذه المقدمة اليسيرة نسلط الأضواء على أصولهم التى أصلوا لها وجعلوها أسسا لمذهبهم وفكرهم .

* أصل التوحيد :

يعبر القاضى عبد الجبار عن هذا الأصل – التوحيد – بقوله هو " العلم بأن الله تعالى واحد لا شريك غيره فيما يستحق من الصفات نفيا وإثباتا على الحد الذى يستحقه والإقرار به " (٢) وهذا الحد الذى يستحقه هو عندهم : التنزيه المطلق للذات الإلهية ونفى المثل والشريك بجميع وجوهه : المادية ، كما كان لدى المشركين بمكة قبل البعثة وعند

(١) انظر -- أدب المعتزلة : لمزيد من هذه الحقائق : ١٢٢ -١٢٤ ، ١٤١-١٤٢ .

(٢) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة – ١٢٨ .

جميع الوثنين الماديين فى كل مكان ، والمعنوية على اى وجه يمكن تخيله أو توهمه . ، ومن منطلق هذا التنزيه ظهر لدى المعتزلة مباحث كثيرة تتعلق بهذا الاصل .. ومن هذه المباحث : ما يتعلق بصفات الله سبحانه ، حيث أنكروها وعطلوا الذات عن صفاتها ، وذلك ظنا منهم أن القول بالصفات القديمة يؤدى إلى تعدد القدماء .

ولهم فى ذلك مذهبان فى الظاهر لكن الحقيقة أن قال المذهبين واحد : أما المذهب الاول : فيرى إنكار الصفات تماما حيث يقول هؤلاء : " إن الله تعالى عليم بذاته لا يعلم ، قدير بذاته لا بقدرة سميع بذاته لا يسمع، وهكذا وأما المذهب الثانى فيثبت لله تعالى صفات ولكنها فى نظرهم عين الذات ويفهمون من قوله تعالى : " ولا يحيطون بشئ من علمه " أن لعلم مضاف إلى الله تعالى والمضاف غير المضاف إليه . ومن ثم فقد أثبتوا الصفة ، لكنهم أنكروها فى النهاية ، بقولهم : إن الله عليم بعلم وعلمه ذاته - سميع بسمع وسمعه ذاته .. وهكذا ومن ثم كان مآل المذهبين واحد فى كون الصفات ليست شيئا زائدا على الذات ، وتعطيل الذات عن صفاتها بزعم أن إثبات الصفات يؤدى إلى تعدد القدماء ، وهو زعم باطل، لأن التعدد إنما يلزم من القول بذوات متعددة ، لامن القول بذات واحدة وصفات كثيرة أو متعددة ، والصفات لا تشكل مع الذات تعددا أو كثرة .

كما اننا لا نعلم على الراى الثانى: كيف تكون الصفة عين الموصوف ؟ أليس فى ذلك خلط بين الحقائق : أن تصبح الصفة موصوفا ، أو الموصوف صفة ، أو ينشا عنهما شئ ثالث ؟!!

إن القول بالتجريد أو التعطيل - تعطيل الذات عن الصفات - قد ادى بهم إلى أغلاط خطيرة منها إنكار رؤية الله تعالى فى الآخرة مع ورود النصوص بذلك والى القول بخلق القرآن وغيرها .. ولشدة تعلقهم بهذا الأصل - التوحيد - أطلقوا على أنفسهم " أهل التوحيد " وواضح

أنهم سموا بذلك اعتمادا على نفيهم الصفات ، وتعطيل الله عز وجل عنها. وقد اتهموا الصفاتية – مثبتى الصفات – بأنهم ليسوا من أهل التوحيد حيث أثبتوا الصفات وهى قديمة فنشأ عن ذلك تعدد القدماء يعنون : الله تعالى وصفاته .. ولأن أخص خصائص الألوهية عندهم هو " القدم " فلما كانت الصفات غير الذات ، وكانت قديمة كان القدماء كثيرون فنشا عن ذلك أن الله ليس واحدا ، بل كثير وقد قال المعتزلة للأشاعرة أنتم كفرتم النصارى لأنهم أثبتوا ثلاثة قدماء ، بينما أنتم اثبتم قرابة العشرين قديما ، فأنتم أولى بهذا الوصف من النصارى .

وقد ركزوا جهدهم لتثبيت وتركيز حقيقة التوحيد فى النفوس واتخذوا لذلك كافة الوسائل والأساليب التى تحقق هدفهم .

وهكذا انتهى المعتزلة إلى القول بوحدة الذات ونفى الصفات وأن الصفات هى عين الذات واعتبروا أن الله عالم بذاته قادر بذاته حى بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة هى صفات قديمة ، ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الإلهية (١) .

ومن صور الإنحراف المترتبة على رأيهم فى التوحيد ما يأتى :

١ – نفى الصفات :

وهم فيه يقلدون الفلاسفة الذين يذهبون إلى القول : بأن الله تعالى واحد وحدة مطلقة والواحد وحدة مطلقة لا يعتريه التعدد أو الكثرة بوجه من الوجوه ، وإلا لم يكن واحدا ، والقول بالصفات يلزمه التعدد فى زعمهم لا سيما على القول بثبوتها على أنها معان زائدة على الذات قائمة بها كما يقول الأشعرية وغيرهم .

(١) الشهرستانى : الملل والنحل : ٤٤/١ .

وقد سار المعتزلة على نهجهم فى نفى الصفات مع الإختلاف فى نفيها مطلقا ، أو فى جعلها إضافات أو اعتبارات وقد ألزموا الأشاعرة بأنهم يقولون بقدماء لا بقديم واحد هو الذات أو الحقيقة الإلهية فقط . وهم لذلك أولى بالشرك من اليهود والنصارى .

وقد غفل هؤلاء أو تغافلوا عما ذهب إليه النصارى من القول بذوان متعددة ، لا بذات واحدة وصفات كثيرة أو متعددة وأن القول بالصفات الكثيرة أو المتعددة لا يشكل مع الذات الواحدة كثرة أو تعددا .

ومن ثم ذهبوا إلى التعطيل كما ذهب أسلافهم من الفلاسفة إلى التجريد . ولهذا أطلق عليهم اسم : المعطلة ، أو النفاة – كما تقدم – وقد غلا بعضهم فى هذا غلوًا بعيدا ، ومن أعظمهم مزيدا فى هذا الباب- كما يقول " الشهرستانى "معمر بن عباد السلمى .

ومن العجب ان يجعل هؤلاء من الصفات التىهى معانٍ فى ذاتا ، او من الذات معانٍ ، ويقولون أن الصفات هى عين الذات " فعلم الله هو الله ، وقدرته هي هو " (١) وهكذا – وهذا مالا يقول به عاقل فكيف تصبح الصفة عين الموصوف ؟! أو الموصوف عين الصفة ؟!

ومن قال منهم بأن الصفات هى عين الذات يفرق بين صفات الذات ، وصفات الأفعال : كالإرادة ، والحب والبغض والرضا والسخط .. الخ . فصفات الذات كالعلم والقدرة وغيرها لا يجوز أن يوصف البارى بأضدادها . ولا بالقدرة على أضدادها ، فالله عالم ، ولا يجوز أن يو ف بالجهل ، ولا بالقدرة على أن يجهل .. أما صفات الفعل فيجوز أن يوصف بأضدادها وبالقدرة على أضدادها . (٢)

---

(١) الملل والنحل : ١ /٦٥

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق /١٢٧ نقلا عن الأشعرى .

وهذا مسلم ، ولكن من بلاهة القول : أن يقال إن الله لا يقدر على أضداد صفات الذات وهو قول يوهم محدودية القدرة الإلهية ، ولكن إذا علمنا أن أضداد هذه الصفات مستحيل على الله تعالى وأن القدرة لا تتعلق بغير الممكن أدركنا استحالة تعلقها بالواجب أن المستحيل . فلماذا التنصيص عليه ؟ ومع القول بنفي الصفات نجد أحد زعمائهم وهو " ابو على الجبائى " يذهب إلى القول بجواز اشتقاق أسماء الله تعالى من أفعاله ، مع أن الأسماء توقيفية كما ذهب إليه جمهور العلماء ؟

ولهذا قال عنه " أبو الحسن الأشعرى " إن بدعتك هذه أشنع من ضلالة النصارى فى تسميه الله أبا لعيسى ابن مريم "(١)

وبهذا وضع المعتزلة أنفسهم فى جدل لا طائل من ورائه حول ذات الله تعالى وصفاته .

وصدق رسول الله (ﷺ) : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوقوا الجدل " (٢)

٢ – التأويل :

كان من الضرورى – وقد ذهب المعتزلة إلى القول بنفى الصفات الإلهية – أن يلجأوا إلى التأويل لجميع النصوص القرانية ، أو الحديثية التى تثبت الصفات الإلهية .

وهذا هو منهجهم لا بالنسبة لما يتعارض مع رايهم فى الصفات فقط ، بل لكل ما يتعارض مع مبادئهم وأصولهم . فهم – كمؤمنين – يؤمنون قطعاً بكل ما جاء به القران الكريم ، إلا أنهم يحاولون دائما أن يوفقوا بين النص والعقل ليقينهم بأن النص لا يخالف العقل . إلا أن التوفيق دائما كان يأتى على حساب النص دون العقل وكان الواجب

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ١٩٥/٢ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان وفضله ١١٩/٢ .

العكس ، لأن العقل من شأنه أن يخطئ ويصيب ، فكان الأولى أن يراجع العقل نفسه .

بخلاف النص الذى يصيب ولا يخطئ ، لأنه وحى إلهى .

ولكن ثقة المعتزلة فى العقل وغلوهم فى شأنه دعاهم إلى أن يقفوا من النص إذا كان قرآنا أو سنة متواترة موقف التأويل له لكى يتفق مع أصولهم ومنطق عقولهم .

وإن كان خبر آحاد رُدَّ وحكم بأن النبى لم يقله – كما سبق بيانه(١) .

والتأويل على قانون الإسلام – أمر لجأ إليه كثير من العلماء كالأشعرى والماتوريدية وغيرهم ، إلا أن الغلو فيه إلى درجة تحكيم العقل فى النقل أمر غير مسلم للمعتزلة ، بل هو أمر دخيل فى الإسلام مأخوذ عن اليهود والفلاسفة .

وهذا ما يؤكده علماء الفرق والمذاهب من أن المعتزلة " قد نبع تأثرهم فى نفى الصفات لله سبحانه مما قاله أئمتهم من المتفلسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعا لم يزل ليس بعالم ولا قادر ولا حى .. حتى إن العلاف – من أبرز دعاتهم – نقل مقالة أرسطو طاليس عينها فى نفيه لصفات البارى تعالى " (٢)

وقد كان المعتزلة أو من استعان بالفلسفة اليونانية واستفادوا منها فى تأييد نزعاتهم ، فأقوال كثيرة من أقوال النظام أبى الهذيل العلاف ، والجاحظ وغيرهم .. بعضها نقل كلية من أقوال فلاسفة اليونان ، وبعضها يستقى من منبعه ، ويغترف من معينه بشئ من التحوير والتعديل " (٣)

---

(١) راجع فى موقف المعتزلة من التأويل : د / عبد الرحمن المواكبى : قضية التأويل فى الفكر الإسلامى

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلامية /٢ / ١٧٧ .

(٣) من مقدمة : للشيخ محيى الدين عبد الحميد : ١/ ٢٣ .

والذى نراه حقا فى هذه القضية : هو الوقوف من النص موقف الراسخين فى العلم كما ذكر القرآن الكريم (١) نصف الله تعالى بما وصف به نفسه دون خوض فيما تشابه علينا ، ونقف مع التفويض والتسليم .

وهذا هو الأسلم لنا والأحفظ لإيماننا وديننا من الزيغ والضلال والانحراف .

وهذا هو موقف السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان .

فالواجب فى هذا الإيمان بما ثبت عن الرسول (ﷺ) فيصدق خبره.. ويطاع أمره .

فقوله تعالى " ليس كمثله شئ " محض لما ذهب إليه المشبهة ، وقوله " وهو السميع البصير " رد على المعطلة (٢)

وأختم بهذا الموقف الذى يظهر حقيقة ما يذهب إليه القوم من انحراف فكرى .

يذكر عن الجنيد أنه مر بقوم من المتكلمين فسأل من هؤلاء فقيل : قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث ، وسمات النقص ، فقال : نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب (٣) ما أجلها من عبارة .. وما أسمى معناها على وجازتها .

٢ – خلق القرآن :

القرآن الكريم كلام الله رب العالمين ومع ذلك يرى المعتزلة أنه مخلوق وهو نفى لوجود أى قديم سوى الذات الإلهية .. ودفع لما كان يظهره

---

(١) انظر الآية (٧) من سورة آل عمران .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٨٣٧ .

(٣) انظر الملل والنحل : ١ /٤٥ والفرق بين الفرق : ١١٤ .

النصارى بين المسلمين من القول بقدم الكلام إثباتا لألوهية عيسى الذى هو كلمة الله القديمة .. ومن هنا تسربت عقيدة التعدد إلى المسلمين .

فالقديم الأزلى هو الله وحده .. وصفاته هى عين ذاته ومن هنا اتفقوا على أن القرآن مخلوق حادث فى محل (١) .

وهذا الافتراء الذى يقول به المعتزلة كسابقه له أصوله الوثنية فى الفلسفة اليونانية .. أو فى أساطير نصرانية أو يهودية .

يذكر الخطيب البغدادى أن بشر بن المريس وهو أحد الكبار الذين روجوا لفرية خلق القرآن كان أبوه يهوديا صباغا بالكوفة .. ويذكر ابن الأثير أن أول من أذاع هذه البدعة ونشرها يهودي يسمى لبيد بن الأعصم ، وكان يقول بخلق التوراة فأخذ عنه مقالته ابن أخته طالوت ونسج على منوالها القول بخلق القرآن ، ويذكر ابن قتيبة أن أول من ابتدع بدعة القول بخلق القرآن المغيرة بن سعيد العجلى ، وكان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى (٢) وإذا كانت هذه الفكرة ملوثه بالأفكار الوثنية فلا غرابة أن يرفضها علماء المسلمين الراسخون فى العلم الذين لم تلوث ثقافتهم الإسلامية .. ولم تتأثر بأى مؤثر خارجى .

ولا غرابة أن تكون هذه الفرية سببا مباشرا لمحنة قاسية وقع فيها كثير من أئمة المسلمين .. وحُملوا قسرا على القول بها فقال بها البعض ترخصا على عقيدة الإكراه ، وثبت الآخرين عزمة فذاقوا التعذيب ألوانا حتى قضى بعضهم من شدة التعذيب ، وبقى الآخرون يعذبون محتملين محتسبين ، مثل الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – .

" فحين استفحل أمر المعتزلة وذاع أيام الخليفة المأمون حملوا الناس على القول بخلق القرآن ، وخالفهم الأئمة من سلف هذه الأمة

---

(١) سورة التوبة : الآية رقم : ٣٠ .

(٢) على وافى : اليهودية واليهودية – ٣٥ .

فاستحل المأمون أموالهم ودماءهم .. حتى إنه حمل الناس على هذا القول وإلا جردهم من حقوقهم (١)

أصل العدل :

هذا الأصل يريد به المعتزلة أن الله تعالى وأفعاله كلها حسنة وأنه لا يفعل القبيح ، ولا يخل بما هو واجب عليه (٢) وهذا الأصل يشتمل على كثير من المسائل أطلق عليها القاضي عبد الجبار اسم علوم العدل منها :

أ – نفى صدور القبيح عن الله تعالى .

ب – ثبوت اللطف الإلهي بعباده .

ج– نفى التكليف بما لا يطاق .

ومن أهم هذه المسائل مسألة حرية الإنسان فى أفعاله فالمعتزلة يذهبون إلى القول بأن أفعال العباد ليست مخلوقة فيهم وإنما هم المحدثون لها (٣) .

ومن ثم فهم مخيرون بين الفعل والترك .. وعلاقة هذه المسألة بالعدل ان الله سبحانه كلف عباده بأعمال ، ووعد المطيع بالثواب وتوعد العاصي بالعقاب .

واذا كان الإيمان بعدل الله من أسس الدين عند المسلمين جميعا إلا أن المعتزلة جاوزوا الحد .. وبلغ بهم الشطط الفكرى ساؤا بعيدا حول هذا المبدأ .

(١) يراجع فى ذلك : منهاج السنة النبوية : لابن تيمية : ١٦٩/٢ ومقدمة ابن خلدون ٨٢٢ . وموقف المأمون من هذه البدعة .

(٢) شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار .

(٣) المصدر السابق : ٣٢٣ .

فمن شططهم وغلوهم الزعم بأن الله يسوى بين المؤمنين والكافرين فى الولاية . حتى قال أحدهم وهو أبو سهل بشر بن المعتمر : كما ذكر البغدادى " إن الله تعالى ما والى مؤمنا فى حال إيمانه ، ولا عادى كافر فى حال كفره " (١) .

واودي بهم إلى عدم الفهم الصحيح وبخافاه الثابت من القرآن والسنة .. وقادهم إلى ما يلى : -

أ - نفى القدر : -

ونفاة القدر نوعان :

١ - القدرية الأولى وهم نفاه القدر جملة . وهم الذين تبرأ منهم ابن عمر - رضى الله عنه -

٢- نفاة القدر الثانية وهم نفاة قدرة الله - تعالى - فى أفعال العباد والمراد بهم المعتزلة ، ويقال لهم القدرية الثانية .

وحتى يكون الله عدلا - فى نظرهم - جعلوا الإنسان خالقا لأفعاله - خيرها وشرها - كامل الحرية والاستقلال فى اختياره ، فالإنسان بما أودع الله فيه من قدرة يخلق عمله ، ويختار أحد السبيلين من غير أن تؤثر فيه عوامل خارجية ، وبذلك يستحق الثواب أو العقاب فى الدرا الآخرة حسب ما قدم فى الدنيا من خير أو شر "(٢)

بل إن بعض المعتزلة مثل الجاحظ وثمامة بن الأشرس ، أثبتا أن القدر خيره وشره من العبد ، إلا أنهما يجعلان كسب الإنسان مقتصرا على الإرادة ، أما بقية أفعاله فهى تصدر منه طباعا كما يصدر الضوء عن الشمس والنور عن القمر . (٣)

---

(١)

(٢) انظر الملل والنحل : للشهرستانى : ١/ ٤٥ ، ٤٦ والفرق بين الفرق ١١٤-١١٥ .

(٣) الملل والنحل : ١ / ٧٥ .

وبالتأمل فيما ذهب إليه المعتزلة نجد أن رأيهم دخيل على الإسلام وتسرب إليهم ، إثر تأثرهم بالفلسفات القديمة . ويقال : إن أول من أظهر القول فى القدر معبد الجهنى وغيلان الدمشقى وأخذه عن نصرانى أسلم ثم تنصر كما مر .

ويذكر " فون كريمر " أن المعتزلة تأثروا فى رأيهم فى القدر بأب كنسى مسيحى هو يحيى الدمشقى الذى عاشر المسلمين وتأثروا به كثيرا(١) ولا غرابة فى ذلك فقد سبق القول بأن المعتزلة تأثروا فى فكرهم بالفلسفة القديمة وأهل النحل الزائفة .. وعكسوا هذا التأثر فى فكرهم المنحرف .

وإن كنا نرى أن ما ذهب إليه " كريمر " وغيره من المستشرقين أريد به تبعية المسلمين فى فكرهم للمسيحيين .

٢ – قولهم بالصلاح والأصلح :

الله تعالى عدل ومنزه عن الظلم ، بهذا يؤمن المعتزلة بيد أن إيمانهم بعدل الله وأنه منزه عن الظلم قادهم إلى القول بنظريتهم المشهورة " بوجوب الصلاح والأصلح " فالله تعالى بناء على عدله لا يفعل إلا ما فيه صلاح العباد وخيرهم ..

لكن !! هناك أمر يلفت الانتباه فى هذه القضية .. وهو أن المعتزلة يثبتون للإنسان الحرية المطلقة فى كل أعماله على الحد الذى نفوا معه تدخل القدرة الإلهية فى أفعال العباد ، حتى أطلق عليهم القدرية الثانية .. وهنا يقيدون قدرة الله تجاه أفعال العباد – تعالى الله عما يقولون علوا أكبيرا – ففى الوقت الذى يقيدون فيه قدرة الرب يطلقون

---

(١) انظر أدب المعتزلة : ١٩ .

فيه حرية العبد بل جاوزوا الحد إلى القول بوجوب رعاية الأصلح على الله تعالى (١) .

وقول المعتزلة بـ " الوجوب على الله – تعالى – " فى كافة ما ذكروه من : فعل الصلاح والأصلح ، و" اللطف بالعباد " " ووجوب تحقيق وعيده كما يتحقق وعده " ، كل هذا طعن منهم فى إرادة الله تعالى وهو نقض : لقوله – سبحانه – وصفا لذاته : (فعال لما يريد) وكأنهم رفعوا الآية واستبدلوها بقولهم فعال لما يجب عليه .

والنظام – أحد قادتهم – يعلن هذا المبدأ صراحة على ما ذكره البغدادي " بأن الله لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم – سبحانك هذا بهتان عظيم – .. كما لا يقدر أن يزيد فى عذاب أهل النار ذرة .. ولا يقدر أن يُخرج أحداً من أهل الجنة عنها .. ولا يقدر على أن يلقى فى النار من ليس من أهل النار ... كما أن الله لا يقدر على أن يعمى بصيراً أو يزمن صحيحا ، ويفقر غنياً لأنه تعالى علم أن أصلح الامور كونه على ما هو عليه (٢) .

وتلك المعاني التى يرددها المعتزلة انعكاس لتأثرهم بالقدامى من الفلاسفة .. " الذين قضوا – كما يذكر ابن حزم – بأن الجواد لا يجوز أن يدخر شيئا لا يفعله ، فما أبدعه وأوجبه هو المقدر ، ولو كان فى علمه تعالى ومقدوره ما هو أحسن وأفضل مما أبدعه نظاماً وتركيبا وصلاحا لفعله (٣) .

---

(١) يراجع فى ذلك فتح الباري : لابن حجر : ١٤ / ٦ فى كتاب القدر من الجامع الصحيح .

(٢) انظر الفرق بين الفرق : ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) الملل والنحل : ١/٥٤ .

وما ذكره المعتزلة يتنافى مع جلال الله وكماله .. واطلاق قدرته قال الله تعالى " وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " (١)

وقال "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ " (٢)

فالله سبحانه لا يجب عليه شئ له القدرة المطلقة والعلم الأزلى جاء فى صحيح البخارى عن ابن مسعود – رضى الله عنه – حدثنا رسول الله (ﷺ)وهو الصادق المصدوق قال:"إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك إلى أن قال :

" فو الله إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع – أو باع – فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها"(٣) وهذا لا يصادر حرية الإنسان والا وقعنا فى الجبر المطلق .

يقول ابن حجر :

استدل بهذا الحديث على أنه لا يجب على الله رعاية الأصلح خلافا لمن قال به من المعتزلة لأن فيه أن بعض الناس يقضى جميع عمره فى طاعة الله ثم يختم له بالكفر – والعياذ بالله – فيموت على ذلك فيدخل النار فلو كان يجب عليه رعاية الأصلح لما ترك العبد عمراً طويلا وهو

(١) سورة القصص : آية رقم : ٦٨ .

(٢) سورة الأنبياء : آية رقم : ٢٣ .

(٣) رواه البخارى : القدرة – ١٤٤ / ٢٧٧ .

يعمل الصالحات ، حتى وقع فى الكفر ثم أماته(١) فمن أين لهم أن فعل الأصلح واجب على الله – سبحانه وتعالى ؟ .

وقد حاول النظام أن يفلسف قضية الأصلح ويخضعها لإعمال الفكر والنظر فيما يتعلق بالقدرة الإلهية فذهب النظام إلى أنها من صفات الذات وهي ليست صفة إيجاد ما دام المقصود منها إثبات الذات ونفى العجز عنها ، وصفة إيجاد الفعل عند النظام هى الإرادة والإرادة الإلهية لا تعنى ، فى نظره ، أنها ميل لشئ يراد تحقيقه يسبق الفعل مباشرة ، لأن الله ليس فى حاجة إلى أن يريد أولا ثم يفعل ثانيا . فالإرادة الإلهية إذا تعلقت بإيجاد الله للأشياء فهى تعنى التكوين " **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** "

وإن تعلقت بأفعال العباد تعنى الأمر ..

فمعنى وصف الله بأنه مريد لأفعال عباده أنه أمر بها ونهى عنها(٢) هذا كلام غير صحيح إن القول بأن الإرادة المتعلقة بفعل العبد هى الأمر يلزمه الأمر بالشر وهو غير صحيح وفى ظل هذا المبدأ – المنحرف – يحدون من طلاقة القدرة إلى الحد الذى تبدو فيه عاجزة هزيلة – وهم فى ذلك يحاكون وثنية المجوس .

ونسى هؤلاء أن الشر الذى يصيب الإنسان هو عين الخير وإن ظن أنه شر (إن الأمراض والأسقام شر على مجاز الكلام ، أما فى التحقيق فهى خير وصلاح ونفع) (٣) .

---

(١) انظر فتح البارى : ١٤ / ٢٩١ .. وللعلماء كلام طويل فى هذا الباب .

(٢) راجع مقالات الإسلاميين : ٢/٢٥٩ والملل والنحل : ١/٥٦ .

(٣) انظر الانتصار للخياط : ٦٥ ومقالات الإسلاميين للأشعرى : ١/ ٢٩٩ .

(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (١) فإذا نجح الإنسان في الابتلاء كان له الأجر والفوز و نو خر .

٣ – الحسن والقبح العقليان :-

وحتى يكون عدل الله : كاملا غير ناقص ، وجزاء الإنسان وفاقا لسعيه يجب – عند المعتزلة – أن تكون للعقل صلاحية إدراك حسن الافعال والأشياء وقبحها (٢) حتى وإن لم يرد بها الشرع .

وهذا المفهوم يعكس مكانة العقل عند المعتزلة وإكبارهم له ، والاعتداد بقدرته ، ويعلنون صراحة أن العقل ينبغي أن يكون هو الفيصل في مجال التحسين والتقبيح لأن معرفة الحسن والقبيح واجبات عقليه وعلى الإنسان تحصيل معرفة البارى بالنظر والاستدلال .. وإن قصر في المعرفة استحق العقو به أبدا . (٣)

إن إعلاء شان العقل وبيان مكانته أمر لا يتنافى مع تكريم الإسلام له لكن العقل له حدوده ومكانته .. ومجاله الذى لا يتعداه .

أصل الوعد والوعيد :-

وهذا الأصل عند المعتزلة يعني " أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب ، وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ، ولا يجوز عليه الخلف والكذب " (٤) .

(١) سورة الانبياء : آية رقم : ٣٥ .
(٢) الملل والنحل : ٧١/١ .
(٣) المصدر السابق : ١ / ٨٥
(٤) شرح الأصول الخمسة : ١٢٥ .

وإيمان المعتزلة بهذا الأصل يتسق مع مفهوم العدل عندهم . وبلغ الإفراط منهم والتجاوز إلى القول : بأن الله لا يقبل توبة المقلع عن الذنب بعد العجز عن اقترافه .. يقول الجبائي : لا تصح توبة من خرس لسانه عن الكذب ولا توبة من جف ذكره عن الزنى " ؟ وللمعتزلة فلسفتهم في المبدأ .. فقد جعلوا من أدلتهم على هذا " أن المذنب إذا علم أنه لا يعاقب على ذنبه بل يعفى عنه لم ينزجر عن الذنب ، لأن ذلك يكون تقريرا له على ذنبه وعدم التوبة عنه ، وكان إغراء للغير عليه " (١)

والقاضي عبد الجبار يعمد إلى التأويل للآيات والأحاديث التي تعارض هذا الأصل وتدحضه ففي قول الله تعالى " **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** " (٢)

قال : يحمل قوله تعالى " ما دون ذلك " على الصغائر " (٣)

وهذا المبدأ يصادم صريح القرآن وصحيح السنة فمن القرآن يقول الله تعالى " **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**" (٤)

أصل : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

المعروف عند المعتزلة كل فعل عرف فاعله حُسنه أو دل عليه ، والمنكر كل فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه (٥) .

---

(١)الايجي : المواقف – ٢/٤٤٦ .

(٢) سورة النساء : آية رقم : ٤٨

(٣) انظر شرح الأصول وفضل الاعتزال : ١٥٤ .

(٤) سورة الزمر : آية رقم : ٥٣ .

(٥) شرح الأصول الخمسة : ١٤١ .

وهذا الأصل عند المعتزلة يوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل المسلمين حسب استطاعتهم .. ولئن كان المعتزلة جعلوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من ثوابت أصولهم .. فإننا نقول : إن قضية الأمر والنهى من صميم مبادئ الإسلام وأسسه الثابته ، فهو أحد عناصر الخيرية لهذه الأمة " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ "(١) .

ودعا إليه القرآن الكريم وأمر به قال تعالى " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (٢)

" وقد أجمعت المعتزلة - إلا الأصم على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإمكان والقدرة ، باللسان أو اليد والسيف ، كيف قدروا على ذلك " (٣)

يقول القاضى عبد الجبار : إن الواجب علينا النصيحة فى الدين بأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر على شرط الطاعة (٤)

وهذا الأصل جعل المعتزلة يبذلون فى سبيل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى جهودا كبيرة . متخذين كافة الوسائل والأساليب ، انطلاقا من اعتقادهم " أنه لا فرق فى باب المناكير بين أن تكون من أفعال القلوب أو تكون من أفعال الجوارح فى أنه يجب النهى عنها إذ النهى عنها واجب لقبحها ، والقبح يعمها ، وهو ما يقتضى وجوب النهى عن

(١) سورة آل عمران : آية رقم : ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران : آية رقم : ١٠٤

(٣) مقالات الإسلاميين : ٣٣٧/١ .

(٤) القاضى عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : ١٣٩

الاعتقادات الفاسدة التى يروج لها بعض أصحابها ، ويبذلون جهدا فى الدعوة إليها " (١) ومؤسس المعتزلة – واصل بن عطاء – كان له فى هذا الميدان باع طويل حيث أعد عددا من الدعاة البارعين أرسل بهم إلى أقطار مختلفة .

وهذا النشاط الدعوى الذى قام به واصل ومن معه صوره صفوان الأنصارى بقوله :

رجال دعاة لا يفل عزمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر
إذا قال مُروا فى الشتاء تطاوعوا
وإن كان صيفاً لم يخف شهرنا حر
بهجرة أو طان وبذل وكلفة
وشدة أخطار وكد المسافر

وهذا الأصل في الدعوة اتبعها عدد من المعتزلة .. وكان من أبرزهم أبو الهذيل العلاف الذى كان يقوم برحلات مختلفة من أجل الدعوة وقد قيل إنه أسلم على يديه عدد كبير (٢) .

وإذا كان للمعتزلة هذا الجهد فى الدعوة فقد كانوا يقومون به وفق مذهبهم وعلى طريقتهم .. بل إنهم اعتبروا الإقناع بالاعتزال جزاء أساسيا من الدعوة التى يقومون بها .. الأمر الذى جعل مذهبهم يذيع وينتشر في كثير من المناطق حتى أصبح يسيطر عليها الاعتزال .

وحسبنا ما ذكره أبو القاسم البلخى أن كثيرا من الكور التى غلب عليها الاعتزال وهى منتشرة فى أذربيجان وطنجة والبيضاء التى يقال إن فيها مائة ألف يحملون السلاح يقال لهم الواصلية (٣) نسبة إلى واصل بن عطاء .

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة : للقاضى عبد الجبار : ٧٤٦ .

(٢) مراجع طبقات المعتزلة وفضل الاعتزال : ٢٥٥ .

(٣) أبو القاسم البلخى : فى ذكر المعتزلة عن مقالات الإسلاميين ، ضمن طبقات المعتزلة : ١٠٩ .

وسلكوا فى هذا طرقا شتى كتأليف الكتب وكتابة الرسائل واستخدموا سلطانهم لفرض آرائهم المخالفة – خاصة قضية خلق القرآن – حتى إنهم أقاموا المحاكم لكل من يناوئهم أو يخالفهم الرأى .. لاعتقادهم أنهم يدافعون عن الحقيقة بل استخدموا سلطتهم الأدبية وغيرها في مقارنة الهون والفساد حتى وصل الأمر إلى التهديد بالقتل .

فقد كان للمعتزلة الفضل فى نشر الإسلام فى البلاد المفتوحة . وكان المسلمون فى – فارس – على سبيل المثال – يقيمون المناظرات بينهم وبين أصحاب البلاد المفتوحة المجوس . وكان المسلمون فى كل مناظرة يخسرون ،لأنهم ما كانوا يعرفون فن الجدل ، بل كانوا يناظرون الآخرين بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وطبيعى أن الآخرين لا يؤمنون بها .. أما الفرس فكانوا على علم بأصول الجدل والمناظرة ، ولديهم فلسفات قديمة ولذلك كانوا يتغلبون .

حينذاك انتدب واصل بن عطاء – رحمه الله – عددا من تلامذته الذين يثق بدينهم وقدرتهم وكلفهم بدراسة فلسفة المجوس وديانتهم ثم فلسفاتهم ، ثم أرسلهم إلى فارس فانتشروا فيها يناظرون المجوس ويفحمونهم ، وقد دخل على أيديهم جمهرة أهل فارس إلى الإسلام .

وليس صحيحا أنهم كانوا يدعون إلى مذهبهم ، بل كانوا يدعون إلى الإسلام بصورة عامة ، أما الدعوة إلى مذهبهم فكانت لدى المسلمين المتعمقين . ونحن ما يجب أن ننكر فضلا لأحد ولو كان صغيرا ، فإن الله تعالى – يقول : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(١) .

---

(١) سورة الزلزلة : آية رقم : ٧ .

أضواء على موقفهم من السنة النبوية

يتجلى موقف المعتزلة من السنة المطهرة من خلال مبادئهم التى صاغوها كأساس لمذهبهم – فكل ما يتعارض مع ما أسسوا له وآمنوا به يقفون منه موقف التأويل أو الرد .

فهم لا ينكرونها جملة واحدة بل يؤولونها تارة ، ويرفضونها تارة أخرى ، وبخاصة إذ كانت تتعلق بالعقائد . وقد كان موقفهم من السنة بين أمرين :

الأول : إن كانت صحيحة أخذوا بها ، لا لذاتها ، بل لأنها تتفق مع مبادئهم ، وإن كانت مخالفة لمبادئهم أولوها .

الثانى : أن أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها فى العقائد لأن حديث الآحاد ظنى الثبوت عندهم ، والعقائد لا تبنى إلا على اليقين ، فإذا جاءت مخالفة لمبادئهم ردت ، وحكم بأن النبى لم يقلها ، إما لسهو الراوى ، أو لخطئه أو نسيانه .. الخ ونسبة الخطأ أو النسيان للراوى أيسر من نسبة الكذب الى النبى وهذا الموقف الاعتزالى نتيجة طبيعية وحتمية لموقفهم من العقل .

وإننا لا ننكر قيمة العقل ومكانته فى الفكر للوصول إلى الحقائق.. لكن ! أن يكون العقل هو الأساس الذى تبنى عليه الأحكام فهذا هو عين الشطط والغلو " إن العقل يهتدى بالشرع .. والشرع وإعمال العقل لا يتنافى أبدا مع ما قرره القرآن والسنة .. بل إن آيات القرآن الكريم تدعونا إلى إعمال العقل ولكن العقل له حدود يقف عندها.

وعلماء السنة النبوية استخدموا العقل لتمحيص الأحاديث ونقد الرواة ولعل من المفيد هنا أن نعطى لمحة موجزة عن مكانة العقل عند المعتزلة "

يقول القاضي عبد الجبار في ثنايا كلامه عن الأدلة وتصنيفها : أولها العقل به يميز بين الحسن والقبيح ، وبه يعرف ان الكتاب حجة ، وكذلك السنة والإجماع .. وربما تعجب بعضهم من هذا الترتيب ، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر ، وليس الأمر كذلك لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل (١) .

ومن هنا فهم يحكمون العقل ويقدمونه على النص من القرآن والسنة .

لقد بلغ الأمر بأحدهم – وهو إبراهيم النظام – إلى القول "بأن جهة حجة العقل قد تنسخ الأخبار " (٢) ويعني بالأخبار ما جاء في الكتاب والسنة فحجة العقل مقدمة بل ناسخة لحجة النص .. أى عقل هذا الذي ينسخ خبرا صحيحا صريحا من سنة الرسول الكريم (ﷺ) فمن الثابت أن النص لا ينسخ إلا بمثله " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " البقرة ..

لكن المعتزلة توغل في تقديس العقل .. ويقيمونه حكما لا يزيله حكم .. بل جعلوا معرفة الله تعالى واجبة بالعقل ..

"معرفة الله تعالى بجميع أحكامه وصفاته قبل ورود الشرع"(٣) فاصول المعرفة عندهم واجبة ، ويمكن إدراكها بالعقل قبل ورود السمع .

---

(١) راجع فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : ١٣٩

(٢) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث : ٤٣ .

(٣) الملل والنحل : ١ / ٧٠ .

قال ثمامة بن أشرس إن من لم يضطر إليها فهو سخرة للعباد كسائر الحيوانات غير المكلفة (١) .

وهذا المسلك الذى سلكوه فى تمجيد العقل وتقديمه على الكتاب والسنة كان موقع استحسان لدى الكثير من مفكرى الغرب فأغدقوا عليهم الألقاب وأحاطوهم بعبارات المدح والثناء .

- فهم المفكرون الأحرار فى الإسلام كما اطلق عليهم " شتينز "

- وهم دعاة الحرية الفكرية والاستنارة كما أطلق عليهم " آدم متز " و " هاملتون " .

- وهم الذين وسعوا معين المعرفة الدينية بأن أدخلوا فيها عنصرا مهما قيما وهو العقل الذى كان حتى ذلك الحين مبعدا بشدة عن هذه الناحية هكذا قال " جولدز يهر " (٢) .

هؤلاء هم المعتزلة فى موقفهم من العقل . يتضح مما يؤمنون به ويذعنون له . وبعد هذه اللمحة اليسيرة عن موقفهم من العقل نبين ما قصدنا الحديث عنه فى موقفهم من السنة النبوية المطهرة

أولا : " موقف المعتزلة من الصحابة "

موقف المعتزلة من الخلفاء خاصة والصحابة عامة يثير الاستغراب على جرائهم وتطاولهم . يبين عن هذا النظّام بقوله : "إن الذين حكموا بالرأى من الصحابة إما أن يكونوا قد ظنوا أن ذلك جائز لهم وجهلوا تحريم الحكم بالرأى فى الفتيا عليهم ، وإما أنهم أرادوا أن

(١) راجع فضل الاعتزال لعبد الجبار : ٧٣ .

(٢) يراجع فى ذلك : أدب المعتزلة : لعبد الحكيم بليع : ١٧٢ .

يُذكروا بالخلاف ، وأن يكونوا رؤساء فى المذاهب ، فاختاروا لذلك الحكم بالرأى .. وبذلك نسبهم – أى النظام – كما يقول البغدادى إلى إيثار الهوى على الدين (١) .

وكثير من الصحابة لم يسلموا من قدح المعتزلة والتطاول عليهم، وإلصاق التهم بهم .. لقد زعم النظام أن فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه شك فى دينه يوم الحديبية وذلك حين سأل الرسول (ﷺ) ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ فقال الرسول نعم قال عمر فلم نعط الدنية فى ديننا ؟ "

هذه الغيرة من سيدنا عمر على الدين ورغبته فى نصرة الحق يعتبرها النظام من التردد والشك (٢) والموقف العام للمعتزلة من الصحابة الكرام يتمثل فى أمرين :

١ – الشكوك فى العدالة

٢ – والاتهام بالفسق

إن الصحابة هم خير الناس على الإطلاق بعد رسولنا الكريم (ﷺ) والنيل منهم أو التطاول عليهم من علامات النفاق " كيف يتطاول عليهم وقد شهد لهم خير الخلق بالخيرية المطلقة .

روى البخارى فى باب فضائل الصحابة عن عمران بن حصين ان النبى (ﷺ) قال : " خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين

---

(١) الفرق بين الفرق : ١٤٨ ، ٤٩ .

(٢) المصدر السابق / ١٤٩ .

* الأمثلة على ذلك كثيرة ذكرها ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث ... ، والاشعرى فى مقالات الإسلاميين ٢ / ١٤٥ .

يلونهم"(١) وفى الصحيحين (٢) يقول (ﷺ) " لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل احد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " .

ويذكر الإمام الغزالى هذه المكانة السامقة والمنزلة الرفيعة لذوى الفضل والصفوة البررة بقوله " فأى تعديل أصح من تعديل علام الغيوب (٣) سبحانه وتعديل رسول الله (ﷺ) كيف ولو لم يرو الثناء لكان فيما اشتهر وتوافر عن حالهم فى الهجرة والجهاد وبذل المهج والأموال وقتل الاباء والاهل فى موالاة رسول الله (ﷺ) ونصرته كفاية فى القطع بعدم التهم " (٤) والتجريح لهم .

وعلماء الأمة مجمعون على عدالة الصحابة الكرام .. حتى عدوا إنقاص قدرهم والتطاول عليهم من علامات الزندقة والمروق عن الإسلام حتى قالوا " إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله (ﷺ) فاعلم انه زنديق ".

ثالثا : " موقف المعتزلة من الحديث "

السنة المطهرة هى المصدر الثانى للتشريع باتفاق الأمة وإجماعها ، لكن المعتزلة درجوا على المخالفة والمنازعة ، وترك الإجماع المتفق عليه فأبو الهذيل يرى أن الحجة لا تقوم فيما غاب عن الحواس من آيات الأنبياء – عليهم السلام – وفيما سواها ، إلا بخبر عشرين فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر ، ولا تخل الأرض عن جماعة هم أولياء الله معصومو . لا يكذبون ، ولا يرتكبون الكبائر فهم الحجة ، لا المتواتر – يعنى من الحديث

(١) صحيح البخارى ٨/ ٥ .

(٢) صحيح البخارى ٨ / ٢٣ وصحيح مسلم ٤ / ١٩٦٧ .

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة فى سورة الفتح " محمد رسول الله والذين معه .. الآية

(٤) انظر المستصفى : ١/ ٦٦٤ .

إذ يجوز أن يكذب جماعة ممن لا يحصون عددا إذا لم يكونوا أولياء الله ولم يكن فيهم أحد معصوم " (١)

وإذا سلمنا مع أبى الهزيل المعتزلى جدلا بعدم ارتكاب المعاصى والكذب فهل نسلم معه بالعصمة ؟؟

إن ما ذكره غير مسلم بالمرة فمن من الناس لا يخطئ أبدا اين نحن من قول النبى الكريم (ﷺ) كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"، ومن من الناس يصل إلى درجة العصمة ؟؟

إن العصمة لا تكون إلا للصفوة البررة من أنبياء الله ورسله – صلوات الله عليهم جميعا إن النظام يذهب إلى جواز وقوع الكذب فى الخبر المتواتر رغم كثرة ناقليه .. وذلك بناء على معتقده من أن الحجة العقلية جديرة وقادرة على نسخ الأخبار (٢) ولا غرابة فى ذلك فهو ينكر حجية الإجماع . وهو بذلك :

١ – يقدح فى المتواتر من الأخبار

٢ – ويقدح فى حجية الاجماع

٣ – ويقول بالعصمة لغير الأنبياء .

هذا بعض ما ذهب إليه أبو الهذيل العلاف مما يثبت شططه فى أمور ، وزندقته فى أمور ، ورغم أنه محسوب على المعتزلة إلا أن الانصاف يوجب علينا ألا نحمل آراءه الشاذة هذه على الطائفة ، فإن جمهرة المعتزلة يرفضون ما قال به " العلاف " ويبرءون منه ، وذلك واضح من

(١) الفرق بين الفرق : ١٢٨ ، والملل والنحل : ١ / ٥٢ .

(٢) انظر الفرق بين الفروق : ١٤٣ وتأويل مختلف الحديث : لابن قتيبة ٤٣ .

آرائهم التى تخالف ما ذهب إليه وقد كانت بداية انحرافه تهجمه على الصحابة - رضوان الله عليهم - وانتقاصه من أقدارهم ، وطعنه فى عدالتهم ، وهم أفضل الأمة بعد رسول الله (ﷺ) والذين مات رسول الله وهو عنهم راض ، وعن عدالتهم مدافع ، لذلك كانت آراؤه وقفا عليه ، يحمل وحده وزرها ووزر من تابعه فيها ، وهم - ولله الحمد - قلة على شاكلة صاحبهم .

* تشكيك المعتزلة فى السنة :

إن ما يعارض أصولهم من السنة يرد وينكر أو يؤول "فالقاضى عبد الجبار يرد بعض الأحاديث الصحيحة وهو يقول عنها : " مثل هذه الأخبار لا يجوز التصديق بها إذا كانت مخالفة للأدلة القطعية " (١)

بل إنه يصف من يخالف المعتزلة بأنهم لا يميزون ما يقولون . وأن أصحابه هم المتمسكون بالسنة والجماعة ، دون هؤلاء المشنعين عليهم(٢) ومن صور الشطط والإنكار ما يلى :

١ - موقفهم من أحاديث الشفاعة :

الشفاعة فى نظر المعتزلة تتنافى مع مبدأ - الوعد والوعيد - ومن هنا ينكرون شفاعة الرسول (ﷺ) لأهل الكبائر من الأمة الإسلامية (٣) ، والقاضى عبد الجبار يقر الشفاعة لكن يجعلها خاصة بأهل الثواب دون أهل العقاب ، ولأولياء الله دون أعدائه .. وشفاعة الرسول (ﷺ) لهؤلاء فى أن يزيدهم من الفضل والتعظيم فى الجنة .

---

(١) فضل الاعتزال : ١٥١ .

(٢) راجع المصدر السابق : ٨٦ .

(٣) مقالات الإسلاميين : ٢ / ١٦٦ .

ويستدل المانعون بقوله تعالى " مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ " (١)

فأهل النار يستحقون اللعن والغضب والسخط فكيف يجوز للرسول (ﷺ) أن يشفع لهم ، ومن حق الشافع أن يكون محبا لمن يشفع له راضٍ عنه وهذا يوجب إن كان عليه الصلاة والسلام يشفع لهم أن يكون راضيا عمن سخط عليه ولعنه ، وذلك لا يصح (٢) .

وهم بهذا الموقف ينكرون كل ما يتعلق بالشفاعة من احاديث صحيحة . مثل حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى (ﷺ) قال " شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى " وحديث " أنا أول شافع واول مشفع " وقوله (ﷺ) فى شأنها " أنا لها انا لها .. فيقال لى : اشفع تشفع " (٣) .

وعلماء السنة متفقون على تواتر أحاديث الشفاعة ، وربما يعترض البعض بأن الشفاعة للرسول الكريم (ﷺ) لم ترد صراحة فى القرآن الكريم – كما جاءت فى السنة – لكن هذا لا يقدح فى ثبوتها فكثير من الأحكام جاء ذكرها صراحة فى السنة المطهرة ولم تذكر فى القرآن الكريم .

يذكر البيهقى فى دلائل النبوة ، قيل لعمران بن حصين وهو جالس فى المسجد ، إنكم لتحدثوننا بأحاديث لم نجد لها اصلا فى القرآن ؟ فغضب عمران ، وقال لسائله : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال : فهل

(١) سورة غافر : آية رقم : ١٨ .

(٢) فضل الاعتزال : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٣) أحاديث الشفاعة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما : صحيح البخارى ٥/٨ ، وصحيح مسلم ١ /١٩٥ وسنن ابن ماجه ١٤٤١/١ ، وسنن النسائى ١٧٢/١ ، وغير من كتب السنة

وجدت صلاة العشاء أربعا والمغرب ثلاثا ؟ قال لا فقرأ قول الله تعالى " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا "(١) بل هناك من الصحابة من استنبط الشفاعة لسيدنا محمد (ﷺ) يوم القيامة من القرآن الكريم .

يقول على بن ابى طالب – رضى الله عنه – كما ذكر السيوطى : " إنكم يا معشر أهل العراق تقولون أرجى آية فى القرآن الكريم " قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله " .. لكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى " ولسوف يعطيك ربك فترضى " وهى الشفاعة (٢) .

والمعتزلة ينطلقون فى إنكارهم الشفاعة من إيمانهم بأحد أصولهم وهو – الوعد الوعيد –

وعد الله للأتقياء المطيعين ، ووعيده للعصاة المذنبين وقد سبقت كلمة الله بذلك ولا مبدل لكلماته ، فإذا خرج المؤمن من الدنيا عن طاعة وتوبة استحق الثواب ، وإذا خرج على كبيرة ولم يتب خلد فى النار .. إذ لا يصح خروجهم منها لأنهم من اهل العقاب ، ولا يجوز مع ذلك أن يكونوا من أهل الثواب ، لأن ذلك كالمتضاد (٣)

والمعتزلة وإن خلدوا أهل الكبائر فى النار إلا أنهم جعلوا عذابهم أخف من عذاب الكافرين ..

وإزاء هذا الموقف الرافض للشفاعة لأهل الكبائر من القوم نقول : ثبتت الشفاعة بمثل قول الله تعالى : "مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ" (٤) .

---

(١) سورة الحشر :آية رقم : ٧ – وانظر دلائل النبوة ٣٥/١ .

(٢) الاحكام : للإمام السيوطى ١٦١/٢ .

(٣) القاضى عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : ٢٠٨ .

(٤) سورة البقرة : آية رقم : ٢٥٥ .

وقوله سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (١) ، وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى أشرنا إليها فى الصحيحين والسنن .. والشفاعة اثبتها أهل السنة من سلف هذه الأمة وهى :

١ – الخلاص من هول الموقف وهى خاصة بسيدنا محمد (ﷺ) .

٢ – الشفاعة فى قوم يدخلون الجنة بغير حساب .

٣ – الشفاعة فى رفع الدرجات ،وهى خاصة برسول الله (ﷺ) كذلك

٤ – الشفاعة فى إخراج قوم عصاة من النار أدخلوها بذنوبهم (٢)

وبهذا يتبن موقف المعتزلة من الشفاعة خاصة الشفاعة لأصحاب الذنوب الكبائر من الأمة .

٢ – موقفهم من معجزات الرسول (ﷺ)

يتضح موقف المعتزلة من المعجزات من خلال تصورهم لمقام النبوة العظيم فهناك خلاف بينهم حول النبوة .. هل النبوة جزاء وثواب أولا ؟ فيرى بعضهم أنها ثواب وجزاء على عمل صالح عمله النبى (ﷺ) فاستحق ان يجزيه الله بالنبوة ... ومنهم من يرى أنها ليست بجزاء ولا بثواب " ومن قال بالأول " عباد بن سليمان " ..وأبو على الجبائى " (٣)

---

(١) سورة طه : اية رقم : ١٠٩ .

(٢) يراجع فى ذلك فتح البارى : لابن حجر ٢٢٧/١٧ .

(٣) انظر مقالات الإسلاميين ١٢٧/٢ ، ٢٢٦ .

ومن ثم فهي فى نظر هؤلاء ليست اجتباء واصطفاء من الله سبحانه لرسله والنفي للاصطفاء كلام قديم قال به بعض الفلاسفة حيث جعلوا النبوة درجة من المعرفة وسمو الروح يصل إليه المجتهدون من خلال رياضة روحية ونفسية خاصة .

وبذلك افتقدت النبوة – عند هؤلاء وأمثالم – الجلال والقدسية .. وهذه الدرجة فى نظرهم من الممكن ان يصل إليها أى إنسان .

يذكر الذهبى (١) أن واصل بن عطاء خطب فأجاد ، فقال عمرو ابن عبيد وكان حاضرا : ترون لو كان ملكا من الملائكة أو نبيا من الأنبياء يزيد على هذا " ؟!

ومن هذا المنطلق يعتبر الكثير من المعتزلة إقامة الحجة بالعقل وليس بالنبوة حتى ان من لم يبلغه خبر الرسول فهو محجوج أى تقوم عليه الحجة لأنه قصر فى إعمال عقله للوصول إلى الحقيقة .

بل هناك من المعتزلة من نفى أن تكون المعجزات دليل صدق الرسول (ﷺ) فى دعوى الرسالة فانفلاق البحر وقلب العصا حية وابطال السحر – لسيدنا موسى عليه السلام . وانشقاق القمر لسيدنا محمد (ﷺ) وغيرها لا تدل فى زعمهم على صدق الرسالة "(٢)

والنظام أنكر ما جاء من معجزات نبينا الصادق المصدوق ﷺ) كانشقاق القمر وتسبيح الحصا فى يديه ونبع الماء بين أصابعه الشريفة (ﷺ) (٣) ، وبدع به التطاول والافتراء أن رد حديث ابن مسعود فى انشقاق القمر وتعرى عن كل أدب نحو الصحابة الكرام.. يقول فى جرأة

---

(١) الفرق بين الفرق : ١٦٢ .

(٢) مقدمة إعجاز القران : للباقلانى : ٨ .

(٣) انظر الفرق بين الفرق : ١٣٢ .

عجيبة وافتراء غريب كما يذكر ابن قتيبة والبغدادى " وهذا من الكذب الذى لا خفاء فيه لأن الله تعالى لا يشق القمر له وحده ولا لآخر معه ، وإنما يشقه ليكون آية للعالمين .. فكيف لم يعرف بذلك العامة ، ولم يؤرخ الناس بذلك العام ، ولم يذكره شاعر ولم يسلم عنده كافر ، ولم يحتج به مسلم على ملحد"(١) وحديث انشقاق القمر ثابت فى الصحيح عن ابن مسعود وابن عمرو ابن عباس وأنس بن مالك .

فى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال"انشق القمر على عهد رسول الله (ﷺ) بشقين فقال رسول الله(ﷺ) اشهدوا"(٢) .

قال القاضى عياض : انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا (ﷺ) وقد رواها عدة من الصحابة – رضى الله عنهم – مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها ، قال الزجاج : وقد أنكرها بعض المبتدعة مخالفا الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها ، لأن القمر مخلوق الله تعالى يفعل فيه ما يشاء ، كما يفنيه ويكوره فى آخر الأمر " (٣) .

وبلغت المناوأة والمخالفة إلى إنكار إعجاز القرآن قال النظام "إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس معجزة للنبى (ﷺ) ولا دلالة فيه على صدقه فى دعواه النبوة ، ذلك أن القرآن كتاب كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، ووجه الدلالة فى هذا الكتاب على صدق الرسول (ﷺ) إنما هو ما فيه من الإخبار عن الغيوب .. فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته ، فإن العباد قادرون على مثله ، وعلى ما هو

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ١١ ، والفرق بين الفرق : ٣١٩ .
(٢) صحيح مسلم : ٢١٥٨/٤ .
(٣) صحيح مسلم : شرح النووى : ٢١٥٨/٤ .

أحسن منه فى النظم والتاليف ولم يعارضه العرب لان الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به وهو ما عرف عندهم بالصرفة (١)

هذا موقف المعتزلة من المعجزات .. موقف ينبئ عن مخالفة صريحة لما اجمعت عليه الأمة ، وهذا ما درجوا عليه فى ردهم لصحيح السنة . وهذا قليل من كثير مما خالف فيه بعض رجالات الاعتزال ما اجمعت عليه الأمة المسلمة ، لكن يخفف من حمل هذه الآراء على الاعتزال أن هذه الاراء ليست لجمهرة المعتزلة ، ولكنها كما سبق وبينا – هى للشواذ من مفكريهم الذين تأثروا بالفكر اليونانى وغيره . وهؤلاء قلة وان علا صوتهم واشتهروا . ومن عجب الامور أن شهرتهم كانت فى بعض جوانبها بسبب شذوذ فكرهم ، وفسوق عقيدتهم . فليس من شك فى انهم اشتهروا واشتهرت آراؤهم بسبب خروجها عن الإسلام .. وأمثال هؤلاء مما جاءوا به من فكر شاذ واراء فاسدة حملهم على المعتزلة ظلم ، لكن الظلم الأكبر هو جعل آرائهم الشاذة مقياساً لعقيدة المعتزلة بكل من فيها من رجال لم يقولوا ولم يقبلوا ما جاء به هؤلاء .

والدليل على شذوذ هؤلاء عن المعتزلة أن أفكارهم لم تسند إلى الاعتزال جملة ، بل اسندت إلى اصحابها وعرفت بهم ، مثل القول بأن القران معجز " بالصرفة " فهذا رأى قال به النظام . وتبعه بعض من فاسدي الفكر من المعتزلة وغيرهم وهذا الراى ظل منسوبا إلى النظام وحده ، ومعروفا به ، ومذهباً ينسب إليه وحده .

ومثل ذلك يقال فيما جاء به عباد بن سليمان ، والفوطى ، وغيرهما .فكلام هؤلاء لا يحمل على المعتزلة أو الاعتزال جملة .

لكن الاعتزال إن برئ من ذلك فإنه لا يظل ناصع الصفحة ، لأنه يحمل وزر الاتجاه العقلانى ، وتوجهه الذى يقوم على إعلاء العقل وتقديمه على الوحى مما كان له الأثر المباشر فى ظهور هؤلاء الشواذ .

(١) انظر فضل الاعتزال : ٧٠ والفرق للبغدادى : ١٩٣ .

٢ – موقفهم من رؤية الله تعالى يوم القيامة :

يجمع المعتزلة على أن الله تعالى ليس بجسم ولا عرض ، وأنه لا يدرك بالحواس فى الدنيا ولا فى الآخرة .. حتى أن بعضهم يكفر من يقول برؤية الله سبحانه " كما ترى المرئيات بالمقابلة أو المحاذاة أو فى مكان حالا فيه دون مكان " (١) . لكنهم يرون أن الرؤية تكون بالقلوب . ومفادها عندهم أن العلم بالقلب وهذا ما يراه أبو الهذيل وكثير من المعتزلة معه .

وطائفة منهم يرون الرؤية بالعقل وهم الخابطية أتباع " أحمد بن خابط " والحدثية أتباع " الفضل الحدثى " .. فهؤلاء يقرون بالرؤية لكنهم جعلوها رؤية العقل الأول ،العقل الفعال .(٢)

وواضح من هذا الفهم للرؤية وكونها بالعقل تأثر المعتزلة بالفكر الفلسفى اليونانى .. فهذه الفكرة اليونانية تسربت إلى فكر المعتزلة حتى أصبحت ثابتة فى فكرهم. والمعتزلة فى نفيهم للرؤية يستدلون بأن كل شئ يرى بالعين يجب أن يكون فى مقابلة العين .. أى ينبغى أن يكون جسما يحتل حيزاً .. ويعلق على هذا الإمام القرطبى بقوله : اشترط النفاة فى الرؤية شروطا عقلية كالبنية المخصوصة ، والمقابلة ، وإيصال الأشعة وزوال الموانع كالبعد والحجب ، فى خبط لهم وتحكم " (٣)

ورد المعتزلة للأحاديث المثبتة للرؤية بحجة أنها أحاديث أحاد كما يقول القاضى عبد الجبار (وإنما يقبل خبر الواحد فيما طريقه العمل)(٤)

---

(١) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : ٦٣ .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين : ٢٨٣/١ ، والملل والنحل : ٦٣/١ .

(٣) ابن حجر فتح البارى : ١٥٩/١٧ .

(٤) فضل الاعتزال : ١٥٨ .

ويحاول – أى القاضى عبد الجبار – اختلاق بعض الآثار التى تتفق ومذهب الاعتزال فى نفى الرؤية ..

ومما ذكره خبرا ونسبه لابن عباس رواية عن نجدة الحرورى – زعيم الحرورية – ..وآخر ينسبه إلى السيدة عائشة رضى الله عنها ما يأتى :

١ – روى أن نجدة الحرورى سأل ابن عباس فقال : كيف معرفتك بربك ؟ فقال ابن عباس : " أعرفه بما عرفنى به نفسه من غير رؤية ، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة ، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالقياس ، معروف بغير تشبيه ".

٢ – ومما نسبه للسيدة عائشة رضى الله عنها أنها سمعت بأن القوم يقولون بأن الله يرى ، فقالت : لقد قف شعرى مما قلتموه ، ودفعت ذلك وردته بقوله تعالى : " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " (١)

" أما موقفهم من الآيات القرآنية الكريمة المثبتة لرؤية الله سبحانه وتعالى فإنهم يقفون من هذه الآيات موقفا متعسفا .. تارة بالتأويل وأخرى بالفهم السقيم .

فمثلا فى قول الله عز وجل " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * (٢) نجد الزمخشرى يفسرها تفسيرا عجيبا فالمراد بقوله "ناظرة " يعنى منتظرة فالمؤمنون وهم الذين لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، ينتظرون ذلك اليوم .. ويذكر أن تقديم المفعول به " إلى ربها " يفيد

(١) المصدر السابق : ١٥٩ .
(٢) سورة القيامة : آية رقم : ٢٢ .

الاختصاص بمعنى أن هذه الوجوه تنظر إلى ثواب ربها خاصة لاتنظر إلى غيره ..

ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت عدد ، فى محشر تجتمع فيه الخلائق كلهم .. فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص.. والذي يصح معه أن يكون هو انتظار ثوابه وما يفعل بهم لقول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك

والبحر دونك زدتني نعما

وسمعت سرورية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس ابوابهم ويأوون إلى مقاليهم (١) تقول : عيني نويظره إلى وإليكم – بقصد منتظرة – والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه (٢) وما ذهب إليه الزمخشرى من تأويل " هو نفس التأويل الذى يقول به أبو علي الجبائي .. كما ذكره عنه القاضى عبد الجبار وهو يعيب على من يقولون بالرؤية للإلف والعادة وهم يحتجون بقوله تعالى " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " وهذا لا حجة لهم فيه لأن النظر ليس هو الرؤية فتحمل الآية على النظر إلى الثواب أوالانتظار ، كما روى عن بعض الصحابة (٣)

وهكذا ينسبون الرؤية – فى فهمهم . للإلف والعادة ويخرجون الآية الكريمة عن معناها الصحيح المراد به حقيقة الرؤية لزعمهم بأن القول بالرؤية يفيد التشبيه والتجسيم ، ويقيسون الغائب على الشاهد .

(١) نسبة إلى المقيل وهو الراحة وقت القيلولة فى الظهيرة .

(٢) الكشاف : ١٩٢/٤ .

(٣) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : ١٥٨ .

وهناك خطأ لغوى فى هذا التأويل المتعسف وهو أن تأويلهم لناظرة "بمنتظرة " خطأ لأنه لا يتعدى بإلى .. ورحم الله الإمام الشافعى حين سئل عن هذه الآية فقال :

لماحجب الله قوما بالسخط ، دل على أن قوما يرونه بالرضا . وساله تلميذه الربيع بن سليمان : أو تدين بهذا يا سيدى ؟ قال : رحمه الله " لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا"

ويقرر ابن تيمية هذا المعنى بقوله : " كل ما كان وجوده أكمل كان أحق بأن يرى . والموجود الواجب الوجود أكمل الموجودات وجوداً، وابعد الأشياء عن العدم ، فهو أحق بأن يرى ، وإنما لم نره فى الدنيا لعجز أبصارنا عن رؤيته لا لأجل امتناع رؤيته "(١) .

وأشير ثانية إلى أن أحاديث الرؤية بلغت مبلغ التواتر وهى ثابتة فى الصحيحين والسنن .

فالإمام البخارى فى كتاب التوحيد عقد لها بابا وترجم له تحت عنوان " باب قول الله تعالى " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " والإمام مسلم فى كتابه الإيمان عقد لها بابا وترجم له تحت عنوان "باب معرفة طريق الرؤية " وكذا أئمة السنن أبو داوود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

لكن المعتزلة بهذا التأويل المتعسف لحقائق النصوص الثابتة يحجبون أنفسهم عن خير كثير .. ويسيئون الفهم الصحيح .

(١) منهاج السنة النبوية : ٢٥٥/١ .

٤ – " موقف المعتزلة من مرتكبى الكبائر "

سبقت الإشارة إلى مبدأ المعتزلة " الوعد والوعيد " الوعد للمطيعين بالفوز والجنة ، والوعيد للعاصين بالخلود فى النار – والعياذ بالله .

وهذا عندهم مبنى على إيمانهم " بعدل الله " فالارتباط بين العدل الإلهى والوعد والوعيد يوجب ما آمنوا به واعتقدوا يقينه ، وموقف أهل الاعتزال من أصحاب الكبائر ما بين معتدل وغال ، فالكبيرة عند معتدليهم " كل ما أتى فيه الوعيد فهو كبيرة وكل ما لم يات فيه الوعيد فهو صغيرة .

والغلاة منهم جعلوا ارتكاب اى لون من ألوان المعاصى والذنوب كبيرة شريطة أن يكون مرتكبها متعمدا [١] ومنهم من اشتد به الشطط والغلو فجعل صاحب الذنب صغيرا كان أو كبيرا فى عداد المشركين – أعاذنا الله – ومن هؤلاء الواصلية كما يذكر البغدادى " تزعم أن كل مرتكب للذنب صغيرا أو كبيرا مشرك بالله"[٢] وهذا إن صح عنهم كما يقول البغدادى فهو شرك عمل لا شرك كفر

وحين يرد على المعتزلة بآيات المغفرة والتوبة كقوله تعالى : "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " [٣]

وهى صريحة الدلالة فى المغفرة وفق المشيئة الإلهية .. نجدهم يفرون إلى التأويل المتكلف الذى يخرج الآية عن مفهومها الصحيح فالزمخشرى يطوع الآية لتوافق مذهب القوم بقوله :

---

(١) مقالات الإسلاميين : ٣٣٢/١ .

(٢) الفرق بين الفرق : ١١٧ .

(٣) سورة المائدة : آية رقم : ٣٤ .

" الوجه أن يكون الفعل المنفى لا يغفر " والمثبت " يغفر جميعا موجهين إلى " لمن يشاء " كأنه قيل : إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك ، على أن المراد بالأول من لم يتب وبالثانى من تاب .. ونظيره قولك : إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء . تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ويبذل القنطار لمن يستأهله"(١)

وهو بهذا يسوى بين المسلم والمشرك فى وجوب التوبة حتى يطوع الآية لما يوافق المذهب .. والآية الكريمة واضحة فيمن لم يتب ولم يذكر فيها توبة .. فلذلك أطلق الله تعالى نفى مغفرة الشرك وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بمشيئة الله ، وهنا وجه ارتباط الآية بعقيدة أهل السنة .. كما أن الشرك غير مغفور – أبدا – وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فكلاهما مغفور (٢) .

وبعد تقرير أهل الاعتزال أن الله لا يغفر لمن خرج من الدنيا وهو عاص بدون توبة لأن هذا عندهم يتنافى مع العدل والوعد والوعيد .. ومع نظريتهم بوجوب الصلاح والأصلح ، جعلوا صاحب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين فى الدنيا لا هو مؤمن ولا هو كافر بل فاسق ، وفى الآخرة جعلوه مخلدا فى النار .

فأهل النار إذا دخلوها لا يصح أن يخرجوا منها ، لأن فى خروجهم من النار ثوابا ، فيصبح الواحد منهم من أهل الثواب ، ومن أهل العقاب معا ، وهذا كالمتضاد (٣) .

---

(١) الكشاف : ٥٣٢/١ .

(٢) انظر الانصاف على هامش الكشاف :١/ ٥٣٢ .

(٣) القاضى : فضل الاعتزال " ٢٠٩ .

ولقد ساق المعتزلة بعض الأدلة لتأييد مذهبهم فى وجوب العقاب وظاهرها يوحي بالخلود فى النار .. وتأولوها بما يوافق المذهب .

من ذلك ما جاء فى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائى ، أن رسول الله (ﷺ) قال : " من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده يجأ بها نفسه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها ابدا (١) لكن العلماء لهم توجيهات لهذا الحديث .. نذكر منها ما أورده ابن حجر فى الفتح :

١ – أن الخلود المذكور فى الحديث إنما يصدق على من استحله ، فإنه يصير باستحلاله كافرا ، والكافر مخلد بلا ريب .

٢ – أن التخليد ورد مورد الزجر والتغليظ وأن حقيقته غير مراده (٢) أو المراد به المكث الطويل دون التأبيد فيها .

إذن الحجة داحضة ولا وجه لاحتجاجهم بالحديث .. لكن مع هذا يذكر القاضي عبد الجبار " أنه كما ثبت خلود أهل الكفر فى النار ثبت أيضا تخليد قاتل النفس والفار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك"(٣) ونرد بأن كل ذلك لمستحله .. أى من يستحل قتل النفس او يستحل الموبقات ، فهذا استحل ما حرم الله عليه بدليل قطعي الثبوت والدلالة وعليه إجماع الأمة .

وعلماء السنة تصدوا لهذه الترهات والضلالات الفكرية مستدلين بما صح عن الصادق المعصوم (ﷺ) .. وهم مجمعون علي أن المعاصى ليست موجبة للخلود فى النار .

(١) صحيح البخارى : ٤٦٩/٣ .
(٢) فتح البارى : ٤٧٠/٣ .
(٣) فضل الاعتزال : ٢٠٩ .

ففى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد أن النبى (ﷺ) قال : " يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبه من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا ، فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية " (١)

يقول ابن حجر " أراد البخارى بإيراده – أى هذا الحديث – الرد على المرجئة لما فيه من بيان ضرر المعاصى مع الإيمان ، وعلى المعتزلة فى أن المعاصى موجبة للخلود فى النار .. فلا يلزم من إطلاق دخول النار التخليد فيها (٢)

يمنح الرب الرحيم رحمته ويتجاوز الغفور عن عبده ، وهم يصرون على المؤاخذه ..!! سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن الأمر كله مرده لله رب العالمين يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .. لا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته وليس فيما يفعل ظلم أو حيف لأنه يتصرف فى ملكه ، وتصرفه فى ملكه ليس عبثا أو لغير حكمة ، بل هو عين الحكمة .

٥ – موقف المعتزلة من عذاب القبر ونعيمه :

يذكر الأشعرى " أن المعتزلة والخوارج نفوا عذاب القبر "(٣) كما أن القاضى عبد الجبار يذكر انقسام المعتزلة فى قضية عذاب القبر إلى منكر له ناف لحقيقته ومثبت ، ومن نفاته ومنكريه ضرار بن عمرو ، وهو من أتباع واصل بن عطاء ويورد – القاضى – حجة المنكرين

(١) الحديث رواه البخارى : ٢٩/١ : كتاب الإيمان .

(٢) فتح البارى : ١/ ٨٠ .

(٣) مقالات الإسلاميين : ١١٦/٢.

بقوله: إن الميت حين يدفن لا يسمع ولا يبصر ، ولا يدرك ولا يلتذ فكيف يجوز عليه المسألة والمعاقبة مع الموت ؟؟ ويقول وأنكر مشايخنا عذاب القبر في كل حال " (١) .

وهذا كبقية آرائهم يخالف صريح القرآن وصحيح السنة .. يقول جل ذكره في شأن آل فرعون : "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ" (٢) استدل العلماء بالآية الكريمة على ثبوت عذاب القبر .. والأحاديث في هذا كثيرة .

وقد ترجم الإمام البخارى في صحيحه في كتاب الجنائز "باب الجنائز " باب ما جاء في عذاب القبر (٣) ، وساق – رحمه الله – عدة أحاديث منها :

أن رسول الله (ﷺ) مر بقبرين يعذبان فقال " إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله " .

وحديث أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم يأتيه ملكان فيقعدانه .. الحديث وحديث القبر روضه من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار فكيف ينكرون ما صح الدليل به .

(١) انظر فضل الاعتزال : ٢٠٢ .

(٢) سورة غافر : آية رقم ٤٦ .

(٣) راجع صحيح البخارى : ٤٢٧/٢ .

" الأسباب التى قادتهم إلى الاضمحلال الفكرى "

من خلال العرض السابق لموقف المعتزلة من القضايا المذكورة نجد التخبط الفكري عندهم .. وهناك عدة أسباب أوقعتهم فى هذا ويمكن إنجازها فيما يلى :

أولاً : البعد عن التطبيق العملى للإيمان :

نادى المعتزلة بالعمل وجعلوا العمل شرطا لصحة الإيمان .. وبالغوا فى الوعيد لمن خالف .. لكن هناك من تجافى عن هذا من زعمائهم ومال عنه بل بلغ الأمر إلى درجة الاستهزاء والسخرية من بعض الشعائر .

يؤثر عن النظام – كما ذكر البغدادي – أنه يرى أن الطهارة غير واجبة معللا ما يراه بقوله " إن غيره لو طهره مع كونه صحيحا أجزأة" (١)

وينسب إليه ابن قتيبة قوله :

مازلت اخذ روح الزق فى لطف
وأستبيح دما من غير مجروح

حتى انثنيت ولى روحان فى جسدى
والزق مطرح جسم بلا روح

فقد كان لير من التراب ويهزى (٢)

---

(١) الفرق بين الفرق : ١٩٧ .

(٢) تاويل مختلف الحديث : ١٨ .

والجبائى كان يغالى فى الوعيد لدرجة رفض قبول المقلع عن الذنوب بعد العجز عن اقترافها .. كان مصرا على شرب الخمر ، حتى قيل : إنه مات فى سكره (١) .

ومن النوادر ما ذكره الجاحظ للدلالة على استهانتهم بالشرع وضحالة فكرهم وانغماسهم فى متعهم الجسدية ورغباتهم الجامحة .

رأى الخليفة المأمون يوما ثمامة بن أشرس – أحد رؤسائهم – سكراناً قد وقع فى الطين فقال له المأمون " ثمامة " ؟

قال له : أى والله .. قال له ألا تستحى ؟ قال : لا والله .. قال – المأمون – عليك لعنة الله .. قال : تترى ثم تترى .. (٢)

هكذا بلا خجل ولا حياء .

ثانيا : شيوع الخلاف بينهم :

يرجع الاختلاف بين المعتزلة إلى تنوع المصادر واختلافها ، وكذلك التعويل المطلق على العقل الذى اعتبروه الأساس فى المعرفة ، وجعلوه رائدهم حتى بلغ بهم أن قدموه على الكتاب والسنة .. ومعلوم من الواقع أن العقول كثيرا ما تختلف .. فالإنسان يرى أمرا صوابا وفى الغد يستبين خطأه لكن الخطورة فى اختلاف المعتزلة فيما بينهم أن هذا الاختلاف دخل فى قضايا عقدية ما كان يجب ولوجها .

ويصور هذاالاختلال الأشعرى وابن قتيبة فيقولان : وقد كان يجب مع ما يدعونه من معرفة القياس وإعداد آلات النظر ألا يختلفوا كما لا يختلف الحسّاب والمسّاح والمهندسون ، لأن آلتهم لا تدل إلا على عدد وإلا على شكل واحد ، وكما لا يختلف حذاق الأطباء فى الماء ونبض العروق ..

(١) الفرق بين الفرق : ١٩١ .

(٢) البغدادى : الفرق : ١٧٣ .

فما بالهم أكثر أهل الناس اختلافا لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد فى الدين (١)

فأبو الهذيل العلاف يخالف النظام . والنجار يخالفهما ،وهشام بن الحكم يخالفهم ، وكذلك ثمامة وهاشم الأوقص .. ليس منهم واحد إلا وله مذهب فى الدين يدان برأيه وله عليه تبع (٢)

وشذ وندر أن نجد قضية لا تختلف فيها أفهامهم وتتعدد آراؤهم فكلمة الاختلاف غالبا تكون على رأس المسائل والأقضية التى يبحثونها " اختلف المعتزلة " وربما بلغ الاختلاف إلى حد النفرة والاتهام .. فأصبح اتهام بعضهم بعضا بالكفر أمرا عاديا .. وأكثر زعمائهم يكفرون أتباعهم المقلدين لهم (٣) .

ومؤلفاتهم خير شاهد ودليل على حالة التردى فى الاختلاف فبشر بن المعتمر كتب كتابا سماه " الرد على ضرار " .. وبشر يكفره تلميذه عيسى بن صبيح – راهب المعتزلة – ويكفر معه أبا الهذيل العلاف والنظام وعددا من شيوخه .. وبادله هؤلاء تكفيرا بتكفير .

وكتب ابن الراوندى الذى هجر القوم ونكص عن الاعتزال بعد أن كان من متكلمى المعتزلة كتابا أسماه " فضيحة المعتزلة " نقضه أبو الحسين بن الخياط بكتاب أسماه " الانتصار رد فية على ابن الراوندى ممن ينسب إلى الزندقه وله فى النبوة كفريات كثيرة رد عليها الخياط فى الانتصار .

وهكذا ظل القوم ينقض كل منهم الآخر ويأخذ منه موقف العداء والمخالفة .

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ١٤، ١٥ – مقالات الإسلاميين : ٢/ ٢٣٢ .

(٢) المصدر السابق : نفس الموضع .

(٣) انظر الفرق بين الفرق : ١٩٧ – ٣ المصدر السابق .

ثالثا : منافاة آرائهم للحق وتأثرهم بالفلسفة القديمة : -

إن تأثر المعتزلة بالمذاهب والأفكار الدينية والفلسفة القديمة .. أدى بهم إلى الجهر بكثير من الآراء التى تتنافى مع العقيدة وهذا التأثر لدى الكثير من رجالهم – قادهم إلى نفى القدر فأطلق عليهم القدرية .. وإلى نفى الصفات فأطلق عليهم النفاة .. ونفى رؤية الله ، والقول بأن القرآن مخلوق وتأثرهم بهذه الفلسفة والمذاهب جعلهم يعلنون فى جرأة عجيبة تقديم العقل القاصر فى إدراكه لكُنْه الأشياء على النقل القطعى فى الدلالة والثبوت .. ومن هنا حكموا أهواءهم فردوا كل ما يتعارض مع فكرهم ومما زاد من بشاعة الأمر وضراوته استخدامهم العنف وسيلة لبسط آرائهم وفرضها على الناس .

بل وصل الأمر إلى التصفية الجسدية والاغتيال لمن خالفهم

" فعباد بن سليمان يرى قتل الغيلة فى مخالفيه ويقول : إذا كنا جماعة وكان الغالب عندنا أنا نكفى مخالفينا عقدنا للإمام ، ونهضنا فقتلنا السلطان وأزلناه، وأخذنا الناس بالانقياد لقولنا ، فإن دخلوا فى قولنا الذى هو التوحيد ، وفى قولنا فى القدر ، وإلا قتلناهم"(١)

وهذا يتنافى مع حرمة الإسلام للدماء والأموال والأعراض ، ففى الصحيحين يقول (ﷺ) إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا (٢) .

لعل ما ذكرته – فى تصورى – يعطى صورة واضحة عن الفكر الاعتزالى فهذه الإسباب وإن لم تكن إحصائية إلا أنها تعتبر من أهم

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ٢/ ١٥٧ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب العلم : ١٦٨/١ ، وصحيح مسلم : ٣/ ١٣٠٦ .

العوامل التى قادت الكثير من رجال المعتزلة إلى الانحرافات الفكرية فى قضايا العقيدة ..

وقد قيض الله للأمة من يزود عن الدين ويرد سهام هؤلاء قديما وحديثا .. فرد عليهم أئمة فى الحديث كابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث وابن حجر فى فتح البارى والنووى فى شرحه لمسلم وغيرهم ..

كما رد عليهم علماء العقيدة .. فأبو الحسن الأشعرى عاش زمنا معهم على الاعتزال وما إن علم بحقيقتهم حتى تبرأ منهم .. وكشف أسرارهم ورد أباطيلهم فى كتابيه – الإبانه فى أصول الدين ، ومقالات الإسلاميين .. ومات – رحمه الله – وهو شديد البغض لهم .

والشهرستانى فى " الملل والنحل " وابن حزم فى "الفصل " .. وابن الجوزى والبغدادى .. وغيرهم هؤلاء كثير .

وأثمرت هذه الجهود المباركة عن كشف حقيقة المعتزلة ، وتحذير الأمة من خطر هذا الفكر المنحرف الذى يؤدى إلى الهلاك .

سئل قاضى القضاة أبو يوسف – صاحب الإمام أبى حنيفة – عن المعتزلة : قال : هم الزنادقة .

والإمام الشافعى لم يقبل شهادة المعتزلة وأهل الأهواء أسوة بمالك وفقهاء أهل المدينة (١) وهكذا صار أهل الاعتزال حتى وهم فى قمة مجدهم أيام رموزهم الشامخة دليلا على المروق والبعد عن الدين والشريعة .. الأمر الذى جعل أهل الحديث لا يقبلون روايتهم .. حتى من كان منهم على علم ترد روايته لأنه معتزلى صاحب بدعة . وهذا يدعونا إلى التساؤل ..

---

(١) ذكر هذا البغدادى فى : الفرق بين الفرق : ١٧١ .

هل هناك علاقة بين فكر المعتزلة وغيره من الفرق الضالة ؟

فهناك فرق أخرى نهجت نفس المنهج كالقدرية والجهمية ولذلك نجد من الباحثين من ينسب المعتزلة إليهما – القدرية والجهمية – فهم قدرية لأنهم ورثوا القول بنفى القدر عن القدرية .. وكذلك نسبة الأفعال للعبد بلا تأثير من الله .

وهم جهمية لأنهم ورثوا القول بنفى الصفات وخلق القرآن وانكار رؤية الله تعالى يوم القيامة (١) عن الجهمية .

وربما لا تروقهم هذه التسمية لأنهم يرون أن مثبتى القدر أولى وأحق بهذه التسمية ، حتى ذكروا عن بشر بن المعتمر قوله : ننفيهم عنا ولسنا منهم ولا هم منا ولا نرضاهم .

(١) انظر : أدب المعتزلة : ١٣٢ .

الخاتمة

الصفحات السابقة كانت بمثابة تسليط الضوء على فرقة كان لها دورها فى الفكر الإسلامى بصفة عامة .

وإذا كان ما ذكرناه يعطى صورة واضحة لفكر المعتزلة فى كثير من القضايا فيمكن القول : أن المعتزلة فى بدايات الظهور والانتشار كان هدفهم الدفاع عن الإسلام بما يملكون من مقدرة عقلية على الحاجة والمحاورة إلا أن النهاية أودت بهم إلى درك التعصب المذهبى .. وظهر تعصبهم جليا فى مواقفهم من قضايا العقيدة وتفلسفهم فى التأويل وتطويع النصوص لغرضهم انتصارا لمذهبهم .

لكن .. كان منهم من له قدم راسخة فى العلم والعبادة .. يذكر القاضى عبد الجبار " أن عمرو ابن عبيد قال عنه الحسن البصرى هو خير فتيان أهل البصرة ، وله فضائل كثيرة .. يقال إنه حج أربعين سنة ماشيا ، وبعيره يقاد معه يركبه الفقير ، والمنقطع به ، وكان يحيى الليل كله فعل ذلك غير مرة فى المسجد الحرام .

وهو الذى اتهم عبد الكريم بن أبى العوجاء بالزندقة والإلحاد وإفساد الشباب ودعاه إلى مناظرة البصرة فقال له : بلغنى أنك تخلو بالحدث – أى صغير السن – من أحداثنا فتفسده وتستزله وتدخله فى دينك .. يعنى الزندقة – فإن خرجت من مصرنا وإلا قمت فيك مقاما آتى فيه على نفسك [1] يعنى يقتله لأفعاله القبيحة .

ومبدؤهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جعل البعض منهم ينشق عن الإمام الظالم ويخرج عليه ويقاومه . كما فعل عمرو بن عبيد حيث حث أصحابه على الوقوف مع يزيد بن الوليد ابن عبد الملك

(١) فضل الاعتزال : ١١٥ – ١١٧ .

الذى أراد تخليص الخلافة ونزعها من براثن ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، الذى كان ملحداً مارقاً .. وله من الشعر ما يتغنى فيه بمروقه .. حتى إنه رمى المصحف الشريف – وجعله غرضا .. وخرجت عليه الغيلانيه وقتلوه (١)

ومما يذكر لهم أنهم بذلوا الكثير من الجهد فى سبيل نشر دعوتهم فتفرقوا فى الأمصار . شرقا وغربا – داعين لمذهبهم محاولين إقناع الناس به .

وشارك فى هذا أعلامهم فجابوا البلاد ، وعقدوا حلقات للدروس وناقشوا من خالفهم .. وجادلوا عن الإسلام ضد الملحدين المعاندين وردوا شبه الخوارج والمرجئة (٢)

ومن طرقهم التي استعملوها في نشر افكارهم طرق الفلاسفة.. واستطاعو أن يوظفوا سلاح الجدل والمناظرة للرد على خصومهم واقناعهم .

* هذه لمحات حول فكر المعتزلة فى أهم وأخطر القضايا العقدية، والتى مازال البعض من معاصرينا يلهث وراءها ويرددها عن قناعة ، بدعوي التحرر العقلي وإطلاق الحرية الفكرية المزعومة .

أرجو أن أكون قد وفقت في عرضها .. والله حسبنا ونعم الوكيل ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

د / أحمد عبد الله الطيار

(١) انظر فضل الاعتزال : ١١٧

(٢) المصدر السابق

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- كتب الحديث :

٣- صحيح الإمام البخارى .

٤- صحيح الإمام مسلم .

٥- فتح البارى : لابن حجر العسقلانى ، ط : الحلبى ، ١٣٧٨

٦- أدب المعتزلة : د / عبد الحليم بليغ ، ط : الرسالة ، ١٩٦٩ .

٧- تاويل مختلف الحديث : ابن قتيبة ، دار الجيل : ١٣٩٢ – ١٨٧٢ .

٨- جامع بيان العلم وفضله : ابن عبد البر : المكتبة السلفية

٩- الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادى :– ط : المدنى

١٠- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : أبو القاسم البلخى ، القاضى عبد الجبار ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣ .

١١- الكشاف : الزمخشرى – ط : الحلبى ، ١٣٨٥ ، ١٩٦٥ .

١٢- المعتزلة : زهدى جار الله

١٣- مقدمة ابن خلدون – ط : بيروت ، ١٣٦٧ – ١٩٤٧

١٤- مقالات الإسلاميين : أبو الحسن الأشعرى – مكتبة النهضة ، ١٣٨٩ – ١٩٦٩

١٥- الملل والنحل : للشهرستانى – ط : الحلبى ، ١٣٨٧ – ١٩٦٧

١٦- منهاج السنة النبوية : ابن تيمية

١٧- اليهود واليهودية : على عبد الواحد وافى - مكتبة غريب ، ١٩٧٠

١٨- التنبية والرد : أبو الحسن الملطى - مكتبة المثنى ، ١٩٦٨

١٩- شرح الأصول الخمسة ، القاضى عبد الجبار - مكتبة وهبة ، ١٩٥٦

٢٠- الانتصار : الخياط - ط : القاهرة ، ١٩٢٦ .

الفهرس